التّربية

فنّ، متعة، رسالة

الطبعة الأولى
1440 هـ / 2019 م

اسم الكتـــاب: التربية.. فنّ، متعة، رسالة
المـــؤلـــف: وصال تقة
موضوع الكتاب: خواطر تربوية
مراجعة لغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 128 صفحة
عدد المـــلازم: 8 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 2433 / 2019
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 635 - 0 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

copyrights ©

جميع الحقوق محفوظة

دار البشير للثقافة والعلوم

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

وصال تقة

التّربية
فنّ، متعة، رسالة

همسات في آذانِ المربّين
(ومضات تربويّة لأجل تربيةٍ واعية)

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى كلّ مُرَبٍّ غيور

بيْن يدي الكتاب

بعد أنْ لقي كتابي «مرافئ السكن»- بفضل الله ومنّته- إقبالًا كبيرًا، وبعد تواصلي مع العديد ممّن تحسّنت حياتُهم بعد قراءته واتّباع النصائح الواردة فيه، ارْتأيت أنّه سيكون مواتيًا أن أثنيه بكتابٍ تربوي ينهج نفسَ النّهج في إيصال المعلومة أو النّصيحة بشكلٍ ومضيٍّ في زمن اعتادَ فيه معظم النّاس، إلّا من قلّة محبّة بحقّ للمطالعة، على المعلومة الجاهزة القصيرة، والتّغريدة المختصرة، والمنشور المقتضب المركّز، والذي لا يجعلهم يكسلون على إتمامه، فأجمع الكبسولات التربوية التي كنت أرقمها متزامنة مع النّصائح الزّوجية؛ بين دفّتي كتاب يسهل الوصول إليها، خاصّة بعد توالي طلبات القرّاء، واستحسان بعض المتخصّصين تلك الومضات والإشارات الخفيفة التي تهْدي المربي، أبًا كان أو أمًّا أو معلّمًا، إلى ما عليه تعلمه وفعله لأجل تربية إيجابية واعية.

لا أدّعي أنّني أتيت بما لم يسبقني إليه غيري، وليس هدفي من كتابة هذه النّوعية من الكتب التي تعتمد على النّصيحة الومْضَة؛ أن أشجّع

الناس على الاكتفاء بالمقتضب والزّهد في الكتب المفصّلة؛ وإنّما هدفي أن يكون هذا الكتاب- الجنين- وإخوته فاتحًا للشّهية، وبوصلةً هادية، وهمسات في أذن المربّين لأجل تربيةٍ واعية، وناقوسًا ينبئ عن وجودِ خلل ما في التربية، وبوصلةً لوضع القَدم على أوّل طريق البحث عن الحلّ وتغيير السلوك والمواقف، ومن ثمّ استكمال الطّريق عبر التحليل المسهب لكلّ ظاهرة على حدَة، أو ربّما عن طريق اللجوء إلى متخصّصين بشكل مباشر للمتابعة. وأنْ يعلم المربّي، ويوقن بأنّ التّربية ليست حملًا ثقيلًا، إذا ما ناء به الجيدُ تمّ التبرؤ والتملّص منه، فالكثير ممّا يعجز المربي؛ لا يرجع بالأساس إلى صعوبة المشكل، وإنّما إلى جهله كيف يتصرف حياله، بل أحيانًا إلى جهل أنّ هناك أصلًا مشكلًا يجب أن يحلّ.

وأنْ يقتنع بأنّ التربية فنٌّ ومتعة قبل أن تكون واجبًا ورسالة.

توطئة

هل نحنُ في حاجةٍ إلى الاطّلاع على كتبٍ في التربية حتى نتمكّن، مربّين، من تربية أطفالنا تربيةً سليمة سويّة؟

هل التّربية تحتاج منّا فعلًا أن نبذل جهدَ البحث والاطّلاع ومواكبة المسْتَجدات؟ أم أنّ ذلك السّؤال المتجذّر العالق في منافذ التملّص:

«لماذا ربّى مَن قبلنا أولادَهم دون حاجةٍ إلى توجيهات، ولا إلى اطّلاع على كتبٍ متخصّصة؟» له وجهة ما من الصّحّة، وبأنّنا إنما نمارس المبالغة والتهويل حينما نطالب المربّين بأن ينخرطوا عمليًّا في عملية التّربية؟

نظرةٌ خاطفة لما آلتْ إليه أحوال الأمّة، وأحوال الشباب على وجه الخُصوص، كفيلة بالردّ القاطع المانع بأنّنا في عصر أحوج ما نحتاج فيه إليه؛ إلى استردادِ الهويّة الإسلامية العربية، واستبدال التقدّم والمجد؛ بالبُكاء على «الفرادس» المفقودة، والبطولات المسبية، والفجر المشنوق على مقصلةِ تقليد الآخر، والتشبّع بالثقافات المستوردة التي لا تمتّ لهويتنا بأدْنى صِلة.

تقرير منذ المقدّمة، ودونَ مواراة أو إرجاء التقرير إلى الفقرات الموالية مِن الكتاب، بل ربّما لن تصادفه أيّها القارئ مرّة أخرى في السِّفر الذي بين يديك، بكلّ هذا الوضوح:

«النّشء في خطر»

مربّون، إلّا من رحم الله، قد تملّصوا من المسئوليات، وانشغلوا بالماديات والاختيارات الشخصيّة عن مواكبة عملية التربية، فاكتفوا- في أحسن الأحْوال- بتأمين المستوى المادي، ولم يأبَهوا بحاجيات النشء الأساسية، فعوّضوا حضورهم وفاعليتَهم بالتّزويد والشّحن المادي، وزجّوا برعاياهم في المحاضن التربوية علّها تحمل عنهم ما عجزوا، بل تقاعسوا عن حمْله، فلم يسْتشعروا حجمَ المسئوليّة المنوطة بهِم لأجْل التقويم والإصلاح وتهيّئ مَن سيباهي بهمُ الرّسول- صلّى الله عليه وسلم- باقي الأمم يوم القيامة.

ومحاضنُ تربوية في عمومِها، قد تشبّعت بالبيداغوجيّات المستوردة، والمناهج التربوية الدّخيلة دون قدرةٍ على تكييفها مع واقع «المتربّي» أو اختيار ما يناسب فقط هويّتنا ومرجعيّتنا الإثنية والسوسيو ثقافية، وفي أحوالٍ أخرى هي الأكثر ذيوعًا، قد تطاولتْ على هذا الثّغر، وتصدّت لعمليةٍ هي من أكثر العمليات التقويمية حساسيةً، من غير علمٍ ولا خبرة ولا آليّات ولا قدرة على التّواصل الإيجابي مع المعنيّين.

ومحبّو الأضواء، المتزلّفون للشهرة، المنافسون للأقران، بل و«مسْتَثمرو النّية الصالحة» قد تطوّعوا لريّ الناس بـ «معين» نصائحهم، و«زلال» تجاربهم الشّخصية، و«دفق» تعْميماتهم؛ دون تأهيلٍ ولا استيعاب ولا قدرة على مُقاربة مشاكل النّشء بوسائل بيداغوجيّة تتماشى وروحَ الواقع المتناقض المليء بالتّحديات، ودون أن يكلّفوا أنفسهم الاطلاعَ على كتاب واحدٍ في التّربية، فالمنابرُ المُشاعة المفتوحة أمام كلّ مَن «نوى خيرًا» أو رام «تحقيق ذاته» أو إقناع مَن حوله بأنه يشتغل، هو أيضًا، بعظام الأمور؛ لم تتركِ المجال مقتصرًا على المتخصّصين، وصار كلّ مَن اشتهى الحديث تحدّث، وكلّ مَن أزّه «واعظُه الداخلي» على النّصح نَصَح، وكلّ مَن أراد تسلّق النجاح؛ استحوذَ على السلالم دون اكتراثٍ بالتّأهل أو الفعاليّة، فتطاولوا على هذا الثّغر الحسّاس، وأفسدوا من حيث أرادوا الإصْلاح. فمفهومٌ واحد إنْ تعلّمه الناشئة بالخطأ، قد يترتّب عليه مفاهيم أخرى مغلوطة، وممارساتٌ قد تزيد من استفْحال الأزمة. وتدخل لحلّ مشكلٍ واحد من غير فهْمٍ ولا علم، وإنّما فقط بما جادتْ به القرائح المحْدودة، والوسائل البدائية المتجاوزة؛ قد يكون سببًا في مزيد مشكلات مُتَداخلة يصعُب من بعد تفكيكها، وبالتالي العمل على حلّها، بل قدْ يؤدّي إلى التّدمير وإلى تشويه الفِطَر، وإلى الانحرافات.

ثمّ هلمّ بنا نتساءل من قلب الحَدَث، وبدقّة أكثر:

مَن يفترض أن يهتمّ بشأن التربية، وأن يكون قريبًا من مستجدّاتها ومتعلّقاتها إن لم يكنِ المربي؟

وهل أزمةُ التّربية هي، على الحقيقة، أزمةُ الطفل أو المراهق أم أزمة الوالدين؟

فهذا الطفلُ الذي قد حادَ عن القواعد، وحنف عن السلوك القويم غير واعٍ بأنه بذلك «يجانب الصواب» و«يصادم النّظم»، ويخلق أزمات. وهذا المُراهق الذي اختار أن ينقطعَ عن الدراسة، أو أن ينحرف، أو أن يتمرّد على الخطوط الحمراء؛ قد اختارَ نهجَه، مصادمًا بذلك رغبات والديه ومجتمعه. اختار ومرّ إلى الفعل وانخرطَ مع وسائله؛ تارةً في البحث عن نفسه، وتاراتٍ للإطاحة بسلطة القواعد المتمثّلة على العموم في الوالدين أو المحاضن التربوية، ولا يعترف ابتداءً بأنّه مسبّب الأزمة، فهو في مفهومه لا يفعل أكثر من أن يمارس حقّه في أن يكون مراهقًا، أمّا المربي؛ فهو مَن يجدُ نفسَه في مواجهة وضعٍ لم يكن يتوقّعه؛ يعكّر صفوه، ويغيرمجريات الأحداث بشكلٍ عنيفٍ، يحاول جاهدًا- في أحسن أحواله إنْ كان واعيًا متفرّغًا للوعي- أن يفهم، وهو الذي كان- من سنوات فقط- مراهقًا أيضًا، فلا يعثر على حالات شبيهة قد مرّ بها حينها، ليس لتباين المواقف، ولا لأنّ مراهقته مرّت في هدوء، ولكن لأنّ من

السّمات الإكلينيكية للمراهقة؛ أنّها غير قابلة للاختزال ولا للتشبيه ولا للعكس، ويستعصي جردها ومقاربتها من خلال مراهقة قديمة.

عودٌ على بدْء، أزمة التّربية هي بالضرورة أزمة المربي، الذي يعيشها على وقْع الصّدمات المتكرّرة كلّما تحرّك الطفل أو المراهق باحثًا عن نفسِه داخل منظومة مجتمعيّة تصادم توقّعاته وطموحاته، وتخالفه في تصوّراته وتحرّكاته، فيصيبه من تداعيات الأزمة ما يصيبه، لكن ليس بحجْم وقْعِها في الغالب على المربّي نفسه.

فهل سنظلّ عالقين في السّؤال الاستنكاري المفرَغ من المنطق، المصدر به هذه التّوطئة، لأجل إعـادة تدوير الغائيّة من مواكبة مستجدات التربية؛ والذي إذْ ينمّ عن جهل السائل بدوْره ورسالته، يفشي رغبته المكشوفة في التملّص من تبعات هذه المعرفة، وبالتالي التمسّح بالتساؤلات العقيمة، والاحتماء بها من ضرورة تحمّل مسئوليّته كاملة في البحث والمواكبة؟

هل نحنُ فعلًا في حاجةٍ إلى إقناع المربّي بأنه عليه أنْ يفهم أنه في عالم مليء بالتّحديات والمتناقضات، وبأنّ الارتجال والعبثية والسّبَهْللة لن تربي هذا الجيل الذي يشبه عصرَه في سماته المتناقضة؛ وبأنّ المربي، إن كان من قبْل لا يحتاج إلى قراءة الكتب وحضور النّدوات والدورات كي يقوم بدوْره في التربية، فلأنّ المجتمع كان على سجيّته وفطرته، وكان قليل الانفتاح على الثّقافات الأجنبية، وكانت كلّ مكوّناته برُمّتها تسهم

بشكل أو بآخر في التربية. فكانت الأعراف والثقافات السائدة تستقي معظم أحكامها من الدّين، وكانت الحكايات الشّعبية تربي، والمُثُل والأحكام تنخرط في بناء الشخصية، والتجمّعات العائلية مناسبة لترسيخ المبادئ وإبراز القدوات. كانت آلياتُ التربية بسيطةً لبساطة المجتمع وابتعاد مكوناته عن التّعقيدات، لكنّ التربية كانت حاضرة. (ولست هنا بصدد إصدار أحكام القيمة على هذه الحقبة الزّمنية وعلى معالم التربية خلالها، وليس هدفي مدحًا ولا انتقادًا، وإنما هي مقارنة للأحوال في مجْمَلها ردًّا على مَن يريد تشبيه واقعنا الحالي بماضٍ تختلف معالمه كلّ الاختلاف عمّا هو سائد الآن)

أمَا وعصرُ العولمة قد هيّأ الانفتاح غير المشروط على الثقافات الأجنبية، ويسّر التشبّع بكل وارد، وانسحقَ الوالدان في براثن الرّأسمالية الخبيثة تأمينًا لموارد العيش، واقتصرَ دوْرهما- في عموم الأمر- على تأمين الماديّات فقط دون وعي بالبُعد المقاصدي لوالديتهما، ودون فهم دقيق لرسالتهما ودورهما، فقد صارَ لزامًا عليهما أن ينخرطا في كلّ ما يرفع عنهما سَخيمة الجهل بمسئوليتهما، ويساعدهما على الوعي بما عليهما من واجبات، ويحثّهما على عدم التملّص ممّا هو ملقى على عواتقهم.

ولعلّ هذه الهمسات الحانية في آذان المربّين، ومضات والتماعات لأجل تربيةٍ واعية. جعلها الله نبراسًا على طريق العافية.

ماهيةُ التّربية

عَرَّف اللُغَويُّون وأصحابُ المعاجم لفظة التربية بأنّها: (إنشاءُ الشيءِ حالًا فحالًا إلى حَدِّ التمام) و(ربُّ الولدِ ربًّا: وليُّه وتَعَهُّدُهُ بما يُغذِّيه ويُنمِّيه ويُؤدِّبه..)

وفي التّعريف الاصطلاحي: هي «مجموعة العمليات التي بها يستطيع المجتمع أن ينقل معارفه وأهدافه المكتسبة ليحافظ على بقائه، وتعني في الوقت نفسه التجدّد المستمرّ لهذا التراث، وأيضًا للأفراد الذين يحملونه. فهي عمليّة نموٍّ، وليست لها غاية إلّا المزيد من النمو، إنها الحياة نفسها بنموّها وتجددها».

يقول الغزالي رحمه الله:

«وكما أنّ البدن في الابتداء لا يخلَق كاملًا، وإنّما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، وكذلك النفس تُخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنّما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم».

وحيث أنّها محاولة مستمرّة ومتجدّدة من أجل تبليغ الشيء كماله- كما يقول الأصْفهاني- فهي أعقدُ بكثير ممّا نتصوّر؛ من جهة لأنّ المتعامل معه كائن حيّ ينمو، وتنمو معه احتياجاته ورؤاه الخاصّة وقدراته ومهاراته، وتتغير بتغيّر مراحله العمرية، ومن جهة لأنّ هذه المهارات والقدرات المرادُ تطويرُها، والتي سمْتها التغير، سيواجه بها الحياة التي هي أيضًا تخضع لمتغيّرات، ومن جهةٍ لأنّ هذا التكوين يحتاج إلى إيقاظ ميولاته الذاتية الكثيرة، وتكوينه تكوينًا اجتماعيًّا كي يكون أداةَ سعادة لنفسه ولمجتمعه. وهنا تكمن صعوبةٌ أخرى وهي اختيار الأهداف التربوية والوسائل التعليمية لأجل تحقيق هذه الأهداف. ومن هنا يبرز الدّور الكبير للأسرة وللمَحافل التربوية التي تُعنى بتأديبه.

يقول الإمام الغزالي: (الصّبي أمانة عند والديه، وقلبُه الطّاهر جوهرة ساذجة خالية من كلّ نقش وصورة، وهو قابل لكلّ ما نقش، ومائل إلى كلّ ما يُمال به إليه، فإنْ عوّد الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة كلّ معلّم له ومؤدِّب، وإن عوّد الشرّ وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزرُ في رقبة القيّم عليه والوالي له) إحياء علوم الدين.

فالله نسألُ أن يوفّقنا لأداء الرسالة، وتحمّل المسئولية، ونقش صور الجمال والكمال في قلوب فلذات الأكباد النقية الطاهرة، وألّا نلقاه سبحانه بأمانة مضيّعة، ولا بوزْرٍ في رقبة، ولا بتقصير أو إهمال، وأن يقينا وأهلنا- سبحانه- نارًا وقودُها التفريط والإهمال والتقصير وتضييع الحقوق والأمانات.

إشباع حاجيّات الطفل تضمن نموّه السّوي

إذا أردنا أن نكسب الطفل شخصية سويّة؛ فلا بدّ من إشباع حاجاته الجسدية والعقلية والاجتماعية والنفسية، وغرس القيم والأخلاق وتنظيم سلوكه، ووضع الضوابط الاجتماعية التي تنظّم علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه. وأيّة محاولات لتربيته دون الاعتماد على هاته الأبعاد، إنما تزجّ بالمربي في متاهاتٍ تفقده في آخرها إمكانية إمداده بما يشبع حاجاته الأساسية ويضمن نموّه السوي.

يتعاون في هذا الأمر كلٌّ من الأسرة والمحاضن التربوية التي لها دور تكْميلي لما تقوم به الأسرة تجاه النشء.

فما الحاجياتُ الأساسية للطفل؟ وما حاجياته التكميليّة التي بها تنمو شخصيته؟

الحاجات الفيسيولوجية	الحاجات الأمنية	حاجات الانتماء	حاجات التقدير	حاجات علمية	الحاجات الجمالية	تحقيق الذات
الأكل الشرب النظافة النوم	الأمن النفسي والجسدي تجنب الخطر	الحب والقبول الاحترام من الآخرين	التفوق والنجاح التشجيع والثقة والاهتمام	المعرفة الفهم والبحث والملاحظة والاستكشاف	القيم الأخلاق تنظيم السلوك وضع الضوابط الاجتماعية	الابتكار الإبداع

فإذا كان المربي واعيًا بهذه الحاجيات، فإنه سيسهل عليه البحث عن الوسائل الكفيلة بتلبيتها. كما أنّ فهمه لردودِ فعله إثرَ مشاعره المتقلبة بتقلب أحواله المتمثلة أحيانًا في الصّراخ، أو العناد، أو الانزواء، أو غيرها؛ يساعده على اتخاذ المواقف التصحيحية، والانخراط بإيجابية في الحدّ من السلوكات الخاطئة، أو تشجيع الصحيح منها.

ملحوظات:

الاهتمامُ بتلبية حاجيات الطفل والوعي بضرورة تحقيق متطلباته؛ لا تعني بحالٍ أن نكون على الدوام في خدمتِه وتحتَ أمره في كلّ حين، ولا يجبُ أن يتسرّب منها إليه أنه مركزُ الكون، وأنه شغلنا الشاغل الوحيد في هذه الحياة، فيربي فيه ذلك التطلّب والأنانية وحبّ الذات وعدم الإحساس بمَن حوله والهشاشة. نلبي حاجياته الأساسية من غير إفراطٍ ولا تفريط، ونعتني به

بالقدْر الذي يشبعها، ونعلّمه منذ الصغر، وخاصّة في حالة وجوده وحيدًا دون إخوة؛ بأنه جزءٌ من الكون وليس الكون كله، بل نجعله ينخرط في إشباع حاجيات مَن حوله العاطفية، ويسهم في تقديم يدِ المساعدة حسبَ قدرته وطاقته وإمكاناته، فنكون بذلك قد استوعبنا التّوازن في تربيتِه، وهيّئناه لمواجهة حياةٍ لا تعترف بالهشاشة ولا تحبذ الأنانية والتطلب.

دورُ الوالدين في إشباع الحاجيات الآنفة أساسي وجوهري، وهما المسئولان الرئيسان في تحقيق ذلك، وإنما دورُ المحاضن التربوية تكميلي وليس العكس. فبعضُ الآباء يحقّقون لأطفالهم ما هو مادي فقط، ويزجّون بهم في المدارس والمعاهد كي تقوم بالدّور عوضًا عنهم فيما يخصّ العاطفة والتربية، وهذه من الأخطاء الشائعة التي يقعون فيها، فتجد الأب، إنِ استُدعي إلى المدرسة لأجل خللٍ سلوكي في طفله، وجّه أصبع الاتهام إلى المربّين، وعلّق المسئولية كاملة عليهم، وورّطهم فيما كان عليه- أبًا- أن يتكفّل به، وأن يقوم به في بيته.

الصحّة النفسية للطفل عادة؛ انعكاس للصحّة النفسية للمربي.

النّموّ المعرفي والأساس الثقافي المتين داخل البيت أو

بالمَحاضن التّربوية يحدّدان بشكلٍ كبير مستوى الصحّة النفسية لدى الطفل. فالمُكتسبات التي تمْنحها له اللّغة على سبيل المثال؛ باعتبارها الأداة الناقلة للمعْرفة، والوسيط الحامل للعلم، تمكّنه من استكشاف ذاته وهويته عبْر المخْزون اللّغوي، وتساعده على الاندماج في محيطه، وبناء جسور التّواصل مع ذويه وأقرانِه، والتّعبير عن حاجياته بشكل أفضل، بل يتعدّى استعمالُه لها من الفهْم والإنتاج والتواصل إلى التفكير والتحليل والوعي، ممّا يُكسبه الثقةَ بنفسِه، ويُشْعره بمزيدِ أمانٍ داخل محيطه.

كيف نربّي طفلًا متوازنًا؟

التّربية بالحبّ، وعلى الحبّ والاحترام المتبادل.

هنا يكمنُ كلّ شيء، وهذا ما يحتاجُه الأطفال بالضبط كي ينشئوا متوازنين. الطّفل الذي لا يتلقّى كميّة وافرة من الحنان والأحضان، ومن عبارات الحبّ والتقدير والاحترام لشخصه الصّغير بشكلٍ دوري متكرّر، والنّظر إلى شغبه وبراءته وعفويّته ووسائله لإبراز وجوده ولتحسّس العالم حوله؛ بعيْن المحبّ للإبداع، المثمّن لما يصيب فيه، المصحّح بحنكة المربي الصّبور لما يُخطئ فيه؛ ينشأ عادةً جافًّا غيرَ متوازن، عطشانَ للعاطفة، وبالتالي فإنّه لن يحسن إعطاءها لغيره.

أكثرُ ما يجبُ الحرصُ عليه في تربية الأطفال، تنشئتهم على الصلابة الدّاخلية التي ستمكّنهم مستقبلًا من القيام باختياراتهم سواء منها المجتمعية أو الوجودية بكلّ حنكة وجسارة.

التّلقين المجرّد عن الإقناع، وتمرير الخطب التي تنتهي إلى تربية الواجهة دون قدرة على ترتيب الشخصية من الداخل؛ لن تنشئ في

الأخير جيلًا قادرًا على الاختيار وعلى تحمّل تبعات اختياراته، وعلى مواجهة نفسه بالخطأ دون تدافعه مع مَن حوله.

الخطابات العائمة من فصيلة الحِكَم والأمثال، والتوجيهات غير المباشرة من شاكلة الشّعارات؛ لا تأخذ مصداقيتَها، ولا تحقّق الهدف من توجيهها لأنّها تبقى في أذهان الصّغار سطحيّة، ومجرّدَ نصائح عامة لا يستوعبون أنّها تعنيهم.

المباشرة في الخطاب، والردّ على الأسئلة الشخصية، وأخذ شئونهم الشخصيّة محْمَل الجدّ في كلّ حين يقوّي إدراكهم لوجودهم، وينمي داخلهم روح المسئولية الشخصية.

النموّ المنْسجم والمُتوازن للطفل يتحقّق من خلال نموّه الحسي والجسدي، ومن خلال علاقته بمَن- وما- حوله، ومن خلال ردود فعله وأحاسيسه وإبداعاته، وأيضًا- وهذا مهمّ جدًّا- من خلال تطوّره الثقافي. علاقته بالكتاب وبالمطالعة تُساعده على التفتّح وعلى الاستكشاف وعلى تكوين شخصيته وتطويرها.

تحفيزُه على ذلك يبتدئ منذُ طفولته الأولى بحيث نمكّنه من الكتب الخاصّة بمرحلته العمرية، ونجعله يستأنسُ بها ويألفها. ثمّ يأتي دور حكايات ما قبل النوم وقراءة الوالدين لأطفالهما من قصّة ورقية. وبعدها يوجّه إلى ما يمكنه قراءته، ونحرص على أن يقرأ يوميًّا عددًا من الصّفحات، وأن نجعله يختار كتبَه بنفسه لأجل تأسيس مكتبته. إذا

نجحنا في ربْطه بالكتاب، وساعدناه على تنظيم وقته، وكنّا له القدوة في القراءة والتّعامل مع الكتب؛ كسبْنا قارئًا بارعًا، ومحلّلًا متميزًا، وساعدناه على تكْوين شخصيته، وعلى استكشاف ذاته والعالم من حوله وعلى الثقة بنفسه.

لكلّ طفلٍ خصوصيّته في النموّ والتطور، ووتيرته الخاصّة في التعلم التي يجب احترامها؛ والتي لا تشبه بالضرورة وتيرةَ الأطفال الآخرين، ولا تحتّم إلزامه بقواعد عامّة لا بدّ أن ينضوي تحتها، وإلّا حكمنا عليه بالبلادة أو الفشل أو التأخّر.

تعزيزُ الجانب الرّوحي في الطفل، وربطه بالمعاني والمعنويات؛ من أهمّ ما يبني توازن شخصيته.

في الغالب نركّز على تحصيله العلمي الأكاديمي، ونحرص على احتياجاته الجسديّة المادية، ونغفل الجانبَ الروحي فيه.

- جلسةٌ قرآنية يقرأ فيها أو يسْتظهر، أو يتأمّل في آيات الله يتدبرها بعد شرحٍ مبسّط للكلمات وللمعنى الإجمالي؛ ينفع في هذا تزويدُه بمعجم لغريب القرآن يشجّع فيه البحث المستقلّ بتوجيه بداية من المربي. وأسئلة مبسطة لأجل اختبار استيعابه لمعاني الآيات، بل حثّه على تأمّلها وتدبّرها حسب طاقةِ استيعابه.
- تحديثه عن روح العبادات أكثر من حثّه على طقوسها.
- ربطُه بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، وتحديثه حسب المواقف

عن معانيها ومقتضياتها وآثارها بشكلٍ يستوعبه.

- جلسةٌ حميميّة مع القصص والكتب مع الحرص على تنويع المقروء (قصص نتدرّج في انتقائها له تبعًا لدرجة استيعابه، كتب دينية: سيرة، عبادات، قصص الصحابة والعلماء وعظماء التاريخ والأدباء، موسوعات علمية...)

- مناقشته فيما يقرؤه وجعْله يعبّر عمّا استوعبه.

- تصحيح تصوّراته ومفاهيمه للمعاني التي يكثر استعمالها حسب مرحلته العمرية: (الصداقة، الحبّ، طاعة الوالدين، الحقّ والواجب...)

هذه الاقتراحات- وغيرُها ممّا يختاره المربي- تساعد على تنمية مهارات التّفكير والتأمّل، وتربي في النشء الثقةَ بنفسه، وتعلمه مبادئ الحوار والتّواصل، وتعزّز فيه احترام رأي الآخر، وتعلّمه عدم الاعتداد برأيه مادام النقاش مفتوحًا بين الطرفين، ومادام المربي لا يألو جهدًا في استخدام وسائل الإقناع وعدم قمعه.

يحتاجون إلى اعتراف مَن حولهم بوجودهم، وبأنّ حاجياتهم ورغباتهم ليست دونَ قيمة، وإن كانت تتصادم مع رغبات وحاجيات مَن حولهم، لكن هذا لا يعني أن نقوم بتلبيتها في كلّ الأحوال. تصادمها مع غيرها لا يلغي وجودها، ووجودُها لا يعني أنّه من الواجب تلبيتها مهْما كان.

حاوروهم وخاطبوهم كما تخاطبون الكبار. هُم يفهمون كلّ شيء، ولديهم القدرةُ على التّحليل وعلى الاستيعاب. ساعدوهم كي

يفهموا الحقائق كما هي عليه في الواقع بطريقةٍ مبسّطة تسهّل عليهم الاستيعاب، وابتعدوا عن تضْليلهم أو تزييف الحقائق بدعوى أنّهم لن يفهموا. أهون مليون مرّة أن تراوغوهم، وأنْ تُرجئوا الردّ على استفساراتهم إلى حين، ولا أن تجيبوهم بردودٍ فضفاضة أو خاطئة. سيعلمون يومًا الحقيقة، ونظرتهم إليكم ستتأثر باكتشافهم كذبكم عليهم أو تضليلهم.

التّربية تبغي الكثيرَ من الذكاء.. ومِن الصّدق

صاحبوهم، وكونوا دومًا بالقرب منهم ومِن أفكارهم وأحلامهم وعوالمهم المليئة بالبراءة وبالشغب وبالحيوية والحركة.. لكن لا تكسروا كلّ الحواجز بينكم. تبقى أنت الأب، وتبقين أنت الأمّ في كلّ الأحوال، فلا تجعلوا الهيبة تمنعُ القرّب، ولا تتركوا المصاحبةَ تكسر الهيبة.

التربيةُ بالقدوة أهمّ وسيلة وأكبرها وأنجعها لترسيخ المبادئ وتكريس الأخلاق والحثّ على العمل والإبداع، أبًا كنت أو مدرسًا مربيًا. لا يُعقل أن تحدّثهم عن الاجتهاد، وأنت مثالٌ حيّ على الكسل، أو أن تحثّهم على الصّدق، وأنت تلوّن كلامك بصنوف من الكذب والافـتراءات، ولا أن تأمرهم بالاعتراف وبالاعتذار، وأنت أكبرُ المنكرين الجاحدين المستكبرين على الحقّ، أو أن تكلّمهم عنْ حرمة الغيبة، ولسانك يلغُ كلّ يوم أمامهم في كلّ مَن حولك.

لنربِّ أنفسَنا أولًا؛ قبل أن نطالبَ أولادنا بأن يكونوا أسوياء.

هُم نسخٌ طبْقَ الأصل منّا، ويمضون جزءًا كبيرًا من طفولتهم في تقليدنا.

- احترامُنا لهم يعلّمهم أن يحترمونا.
- تقديرُنا لأنفسنا يعلّمهم أن يقدروا أنفسهم.
- ترفّقنا معهم يعلّمهم الرّفق معنا، ومع مَن حولهم.
- ابتعادنا عن تعْنيفهم جسديًّا ولفظيًّا يعلّمهم الهدوء والابتعاد عن العنف.
- عدمُ انتقادنا لهم يعلّمهم ألّا ينتقدوا، ويعزز ثقتهم بأنفسهم.
- تعبيرنا عن حبّنا لهم وعن مشاعرنا تجاههم يعلّمهم الحبّ والتعبير عن المشاعر.

كلامُك مع أطفالك: إمّا رواءٌ يُنعش أرواحهم، ويسقي عقولهم، ويبذر فيهم حبّ الإنجاز والشغف بالإبداع وفتح أحضانهم للحياة، أو قنابل عنقوديّة قد تنْسِفهم على المدى البعيد، وتورث فيهم الخوف والكآبة والانعزال والفشل.

لا شيء أثقل على قلْبِ طفلٍ من ولولة ولطميات وشقّ جيوب أمٍّ لأجل حبر أريقَ على الثّياب، أو ألعاب كُسرت أو تبعْثَرت داخل غرفته، بل على طبخةٍ قد احترقت، أو ملابس غسيل قد بلّلها المطر. ولا أكثر إرعابًا له من صرخةِ والده لأجل تأخّر دراسيّ أو شغبٍ مع إخوته أو لأجل الطّبخة التي أحرقت والملابس المبلّلة المنسيّة فوق السطح.

تبعثره، تنسفه، تبدّد فرحَ الحياة الذي خلقت لأجله طفولتُه.

ولا أجملَ مِن بعْثِ روح الأمل في أفئدتهم الصغيرة البريئة، بالحديث البسيط عن الأشياء الصغيرة الجميلة المحبّبة إلى عوالمهم: «سأصنع لك طبقَك المفضّل» «سنزور جدّتك نهاية الأسبوع»، «لا بأس أن تستضيف صديقَك خلال العطلة، سأصنعُ لكما حلْواك المحبّبة وطبق فشار» «تستطيع استعمال فرشاة الرّسم حين تنهي واجباتك شريطةَ أن تتقن عملك وأن تعدني بعدم صباغة الجدران» «لونُ السماء مُبهج.. سبحانَ مَن خلقها!» «انظرْ إلى النّبتة الذابلة التي سقيتها، تنمو كلّ يوم.. أرأيت كرم الله عليها؟» «اللّون الرمادي للسّماء بشارة خير: إنه المطر...»..

الفرح مُعْدٍ، وعبارات التفاؤل والإيجابية والتشجيع وبثّ روح المرح والفرح في الطّفل تجعله شخصية سويّة مبدعة متفائلة محبّة للحياة وللإنجاز، وتغرس فيه حسنَ الظنّ بالله والثقة فيما عنده سبحانه.

مَن هو المربّي الواعي؟

كما سلف، شخصيّة الطفل تتفتح وتنمو تبعًا لطبيعة وقيمة التواصل الذي ننهجه معه. الاحترامُ والتقدير والحبّ؛ كلّها أشياء تشعره بالأمان، وتساعده على استكشاف ذاته والعالم حوله، وتحفّزه على الانطلاق نحو الآخرين ونحو التعلم. التربيةُ غير العنيفة تنبعُ من الوعي.

فمَن هو المربّي الواعي؟

١- المربي الواعي مَن يستطيع أن يعطي الطفلَ التربية الملائمة له بالضبط، ويستطيع أن يجرّد حاجياته بدقّة، وأن يتعامل مع العوائق بحنكة لأنّه يدرك كمّ التّغيرات التي يمرّ بها الطفل في مراحله المتعدّدة، بل يدرك كمّ التّغيرات التي يمرّ بها هو نفسه، فيحاول تصحيح مساراته وأفكاره التّربوية؛ وفقًا للمستجدات ولَما يحصل عليه من جديدِ تثقيفٍ في المجال.

٢- المربّي الواعي لا يلزم طفلَه بأحلامه المنسيّة وطموحاته التي لم يتمكّن مَن تحقيقها، ولا يطالبه بأن يكملَ نقائصه ويسدّ فراغاته. لا يلغي هويّة طفله، ولا يحقّق ذاته من خلاله، ولا يجعله مسخًا مشوّهًا من كثرة ما يريد تصحيحَ نفسه فيه.

٣- هو الذي يدرك أنّ التربية حركةٌ دءوب، ومراجعات مستمرّة للمواقف ولطريقة التّعامل مع الأحداث اليوميّة، ويعلم أنه لا بدّ من جهدٍ متواصل، فلا وصفات سحرية، ولا ارتجال، ولا حلول جاهزة تنتظر فقط مَن يطبّقها.. بل يوقن بأنّ ما يناسب أحدَ أطفاله من حلول قد لا يناسب الآخر. كلّ طفلٍ هو حالة متفرّدة، وكلّ حالة هي مغايرة لغيرها.

٤- هو الذي يستطيع أن يتّهم نفسَه بكلّ أريحية في العملية التعلمية التربوية عوضَ الإشارة بأصبع الاتّهام إلى الطفل على الدوام. يستطيع مواجهة نفسه بفشله في اختيار الوسائل، ويعطي نفسه أحقّية الخطأ غير المقصود، وبالتالي البحث عن الملائم من الحلول.

٥- يتعامل مع المستجدّات وفق اللحظة الآنية، من غير خلفيات ولا مقارنات ولا اجترار لمَا كان من أخطاءٍ للطفل. كلّ خطأ فهو جديد وإن كان متكرّرًا.. يعالجه وفقَ المعْطيات الآنية، ولا يحكم عليه من خلال ما كان؛ بل من خلال ما هو كائن.

٦- يركّز على الكينونة وليس على الفعل. فكلّ ما يهمّه كيف

يصحّح وكيف يساعد على تجاوز الهفوات، وكيف يسهم في بلْورة شخصية طفله، لا جرد سجلّ الأخطاء وتصنيف الطفل.

٧- يدركُ أنّه الطرف الذي يفترض أن يتغير، وأن يغيّر من وسائله في العلاقات المشكّلة مع الطفل؛ لأنّه الطّرف الأكثر مسئولية والأكثر وعيًا في التربية.

الطّفل والتّربيةُ الوجدانية

غيابُ الخطابِ الوجداني والنفسي للطفل يعطّل نموّه السّوي، ويصنع منه آلةً لضخّ المادة والتّكالب عليها دونَ اهتمام بالجانب العاطفي. مقرّرات ومناهجُ تربوية في عمومِها قد اهتمّت بالكمّ على حساب النوع، وبالعقل على حساب الوجْدان، وبالموادّ التي تؤهّل إلى ما يتطلّبه السوق الرّأسمالي، وما يخوّل اكتسابَ المادة على حساب الجانب الشعوري والعاطفي عند الطفل، ووالدان- في الغالب- اختزلا كلّ العملية التعليميّة لأطفالهم في النتائج المحَصّلة، وجعلوا من الأرقام وسيلتَهم لتقييمهم بل ولتقييم جهودهم معهم، دونَ أن يولوا اهتمامَهم لنموّهم النفسي والوجداني، ودونَ أدنى اعتبار لمكتسباتِهم لأجل بناءِ شخصية متوازنة تمتلك من المهارات الحياتيّة ما ينمّي فيهم الفاعلية والأداء الإيجابي، وتخوّل لهم القدرة على إخراج جانبِهم الإنسانيّ، وتكوين علاقات إيجابيّة مع أنفسهم ومع مَن حولهم، ومع الحياة.

فما حدّ الوجدان؟

وما المقصودُ بالتّربية الوجدانية؟

وما الذي يجْنيه المجتمعُ من تربية لأجيالٍ في مَبْعد عن الاهتمام بالجانب الوجداني؟

يعرّف معجم «الغني» الوجدانَ كما يلي:

وِجْدَانُ الْمَرْءِ: نَفْسُهُ وَقُوَاهُ البَاطِنِيَّةُ، وَمَا يَتَأَثَّرُ بِهِ مِنْ لَذَّةٍ أَوْ أَلَمٍ» اهـ

وجاء في معْجم اللغة العربية المعاصر: مصدر وجَدَ وجدان:

(علوم النفس):

١- موطن كلّ العواطف والرّغبات والأحاسيس بالسعادة أو بالحزن أو بالأمل أو باليأس:- حكم في الأمر بحسَب وِجْدانه.

٢- ضَربٌ من الحالات النّفسيّة من حيث تأثُرها باللَّذّة أو الألم في مقابل حالات أخرى تمتازُ بالإدراك والمعرفة» اهـ

وممّا جاء في موسوعة «ويكيبيديا» توصيفًا لهذه العبارة:

«الوجداني هو اسمٌ منسوب إلى الوجدان، وممّا جاء فيه:

المشاركة الوجدانيّة: القدرة على فهم وإدراك مشاعر الآخرين والإحساس بها.

الشِّعر الوجدانيّ: شعْر يرتكز على الحسّ الإنساني الراقي والتّصوير النَّفْسيّ الخالص.

الإدْراك الوجدانيّ: في (الفلسفة والتصوُّف) الحَدْس بالحقائق الأخلاقيّة عن طريق القلب والعاطفة من غير تدخُّل للعقل.

الأثر الوجدانيّ: في علوم النفس، ما يصاحب الإحساسات من لذَّة أو ألم.

تناقض وجدانيّ: في علوم النفس الانفعالات المتضاربة في آنٍ واحد، كالحبّ والكراهية التي تتأرجح في باطن النفس، وهي في مظهرها الحادّ تتّصل بعدم القدرةِ على اتّخاذ القرار وتحويل الانفعالات من فكرةٍ إلى أخرى، أو غير ذلك.

شَاعِرٌ وِجْدَانِيٌّ: شِعْرُ الوِجْدَانِيَّاتِ: نوعٌ من الشِّعْرُ صادِرٌ عَنِ حديث النَّفْسِ وخواجلها، يتحدّث في الغالب عن موضوعات الْحُبِّ وَالعِشْقِ والرثاء والبكاء على الأطلال، وَتعبير عن مدى مُعَانَاةِ النفس وَإِدْرَاكِهَا لِلأَشْيَاءِ» اهـ[1]

و»للوجدان- بالمعنى المذكور- دورٌ مهمّ في حياة الفرد والجماعة. فتركيبُ الإنسان والعلاقات البشرية جدُّ معقدة، فهو ليس ذلك التركيب الآلي الأوتوماتيكي الذي يتحرّك بسبب أثارات، أو بالأحرى حركات خارجية، كما هو شأن كلّ جسم ماديّ لا يملك الحيوية الذاتية والاندفاع الذاتي، وليس الإنسانُ في نفس الآن ذلك الكائن العقلي، فيتحرّك طبقَ رؤيته العقليّة المسيطرة، ويتصرّف بإرادة محْضة لا يشاركها إحساسٌ ولا حبّ، ولا بغض، ولا غضب، ولا سرور..

(١) ويكيبيديا

وتختلفُ الرّؤى بين مجموعة من الفلاسفة على أنْ يكون الإنسان إرادةً محْضة، وعقلًا محضًا، وأنْ ينطلق من أفعاله وتصرّفاته من الإحساس بالواجب الأخْلاقي والشعور بالالتزام فقط.

إن للوجدان أثرًا كبيرًا في الفكر، وفي السلوك؛ إذْ يدفع نحو بعض المواقف ويمنعُ من بعض، ويقرّر بعض الأفكار، ويحول دون بعضها الآخر، بسبب هذين الأمرين (عن العاطفة، والانفعال، وأثرهما الكبير في الفكر، والسلوك).[1]

(١) نفس المصدر.

أسسُ التّربيةِ الوجدانية

تعدّ مرحلةُ الطفولة مهدَ المراحل النّمائية الإنسانية، فهي مرحلة الفطرة البيضاء، وخلالها يتمّ توجيه تربيةِ الطّفل إلى ما سيتمّ جنْيُه في مراحل نمويّة لاحقة، وهي المعوّل عليها لغرس القيم والمبادئ التي ستشكّل شخصيّة الطّفل عند النّضج. وكما سلف، فالجهلُ بحاجيات الطفل خلال مراحل نموّه المتعدّدة، والعجز أو عدم التفطّن إلى إشباعها، وعدم خلق التّوازن ما بين حاجيات الجسم، وحاجيات العقل، وحاجيات الوجدان؛ تؤدّي إلى خللٍ في شخصيّته، فنكون بذلك قد أجْحَفنا به، وقدّمنا للمجتمع شخصيةً سلبيّة، ضررُها أكثرُ من نفْعها على نفسِها وعلى محيطها. ولعلّه في هذا العصر الذي تكالبت عليه، من جهة، استشراء المادّة والقيم الدّخيلة وتغْيير الأولويات المتأثّرة بالمواد الإشهارية، وبالتفتّح على ثقافة الآخر وعاداته، ومن جهةِ الحروب، ومن جهةِ ما يمارَس على الطفل من كبتٍ وعُنف جسديّ أو معنوي، سواء من المربّين أو من خلال ما تطالعه به الرّسوم المتحركة والألعاب

الإلكترونية، وغيرها من أنواع الآلام التي يتعرّض لها الطّفل بشكلٍ دوْري، أصبح دورُ المربّي أكثرَ خطورة وأكثرَ أهمّية في متابعة الطفل متابعةً تنمّي فيه شخصيّته الوجدانية، فيكون بالقرب منه؛ إنصاتًا وتفهّمًا وتدبيرًا للحلول وردًّا على التساؤلات.

ولعلّ من أهمّ الأسس التي تقوم عليها التّربيةُ الوجدانية:

1 - الجانبُ العقدي:

وذلك بربطِ الطّفل بمعاني الإيمان، وتبسيط مفاهيم هذا الأساس بالشكل الذي يجعلُه مطمئنًّا قادرًا على الاستيعاب، وعلى طرح أسئلتِه دون خوفٍ من قمعٍ أو من عدم الردّ الكافي الذي يشبع فضولَه الصّغير. فالطفل منذ سنواتِه الأولى، يطرح أسئلتَه المشهورة المتردّدة على ألسنة كلّ الأطفال من سنّه: أين الله؟ ولماذا لا نراه؟ وهل يرانا؟ وشبيهاتُ هذه الأسئلة الوجودية التي تخول له استكشافَ العالم واستيعاب ما يشوّش تفكيره، وتتطلّب حنكةً وعلمًا ودراية من المربّي كي يردّ بدقّة، ومن غير تزييف ولا استصعابٍ ولا تسفيهٍ أو قمْع لأسئلته، مستغلًّا قابليتَه للعنصر الديني في هذه المرحلة من أجل تنمية المفاهيم الدينية الأساسية.

ولعلّ أكبرَ عائق لتوضيح المفاهيم الغيبية، أنّ الطفل يعجز عن إدراك المعاني المجرّدة؛ لأنّ إدراكَه في هذه المرحلة يعتمدُ على

المحسوسات، فكان لزامًا على المربّي أن يتنبّه إلى أنّه عليه أن يستخدم حواسّ الطفل، وأنْ يبسط المفاهيم باستعمالِ الأمثلة الحسيّة الواقعية، وأن يكرّس مفهوم انتفاءِ المثل لله تعالى (ليس كمثله شيء) حين الحديثِ عن صفاته سبحانه، أو عند الردّ على أسئلة المكان والوصْف الدّقيق والوالديّة، وغيرها من الأسئلة. وأنْ يحرص على غرس محبّة الله في قلبه، بالحديث عن صفات الجَمال والكمال، وعن صفات الجنّة، وعن رحمة الله وعدله، وحبّه لعباده الصّالحين، والابتعاد عن تفصيل الحديث أو التّركيز عليه بخصوص العقوبات والنّار والانتقام. وأنْ يغرس فيه محبّة النبي- صلى الله عليه وسلم- من خلال سرْد مواقف من سيرتِه، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

2 - الجانبُ الفكري:

بتثقيفِ عقله، وتزويدِه بالمعلومة الصّحيحة، وبمدّه بآليات مبسّطة للتفكّر والتأمّل في المخلوقات وفي المعاني وتدبّر النّعم، وجعله يستخدم عقلَه الصّغير في حلّ المشكلات التي تُعْرض له، وتوفير مساحاتٍ للحركة التي بها يستخرج طاقتَه، وتشجيع حبّ الاستطلاع والردّ على أسئلته والإنصات إلى تحليلاته، وباستثارةِ ذهنِه بالأسئلة وبالألعاب التي تحرّك ملكةَ ذكائه، وبالقصص التي تروَى له أو تُقرأ له أو يَقرؤها هو بنفسه، وتطرح عليه أسئلة في محتواها، أو يطلب منه إعادة سرْدها، وبإشراكه في حلّ المشكلات، وبحثه وتحْفيزه على حفْظ القرآن وبعض الأذكار وبعض

المقطوعات الشّعْرية أو غيرها.. وبتقويم لسانه بالتربية الأدبية.

تعزيز الجانب الرّوحي والفكري في الطفل، وربطه بالمعاني والمعنويات؛ مِن أهمّ ما يبني توازن شخصيته.

في الغالب نركّز على تحصيله العلمي الأكاديمي، ونحرص على احتياجاته الجسديّة المادية، ونغفل الجانب الروحي فيه.

- جلسةٌ قرآنية يقرأ فيها أو يستظْهِر، أو يتأمّل في آيات الله يتدبرها بعد شرح مبسّط للكلمات وللمعنى الإجمالي؛ ينفع في هذا تزويدُه بمعجم لغريبِ القرآن يشجّع فيه البحث المستقلّ بتوجيهٍ بدايةً من المربي، وأسئلة مبسّطة لأجل اختبار استيعابِه لمعاني الآيات، بل حثّه على تأمّلها وتدبّرها حسب طاقة استيعابه.
- تحديثه عن روحِ العبادات أكثرَ من حثّه على طقوسها.
- ربطُه بأسماء الله الحسنى وصفاتِه العلى، وتحديثه حسب المواقف عن معانيها ومقتضياتها وآثارها بشكل يستوعبه.
- جلسة حميميّة مع القصص والكتب مع الحرص على تنويع المقروء (قصص نتدرّج في انتقائها له تبعًا لدرجة استيعابه، كتب دينية: سيرة، عبادات، قصص الصّحابة والعلماء وعظماء التاريخ والأدباء، موسوعات علمية)..
- مناقشته فيما يقرأه وجعْله يعبّر عمّا استوعبه، وتعزيز الجانب النقدي في تفْكيره من خلال إبداء رأيِه، وإتاحة الفرصة له كي يفصحَ عمّا أعجبه وما لم

يعجبْه من مواقف وتصرّفات وسلوكيات لشخصيات القصص التي يقرؤها.

- تصحيح تصوّراته ومفاهيمه للمعاني التي يكثر استعمالها حسب مرحلته العمريّة: (الصّداقة، الحبّ، طاعة الوالدين، الحقّ والواجب...)

هذه الاقتراحات- وغيرها- ممّا يختاره المربي تساعد على تنمية مهارات التّفكير والتأمّل، وتربي في النشء الثقةَ بنفسه، وتعلمه مبادئ الحوار والتّواصل، وتعزز فيه احترام رأي الآخر، وتعلمه عدم الاعتداد برأيه مادام النقاش مفتوحًا بين الطرفين، ومادام المربي لا يألو جهدًا في استخدام وسائل الإقناع وعدم قمعه.

3 - الجانبُ القيمي:

وذلك من خلال تكريس المبادئ القويمة والأخلاق الإسلامية السمحة مثل الصّدق والتسامح، وبرّ الوالدين، واحترام الآخرين، والرحمة، والإيثار، والوفاء بالعهد، والعدل، والانتماء الأسري والوطني، والمشاركة، والإنصات، وتقبل الآخر؛ وغيرها من القيم التي يؤسّس لها المربي من خلال المواقف الحياتية المتكرّرة، والتي يستغلّها بشكل ذكي لأجل التّوجيه، وقبل كلّ شيء من خلال القدوة وإعطائه المثل الأسمى في ذلك، ويعزّزها من خلال إمداده بسيرة النبي- عليه أفضل الصلاة والتسليم- باعتباره مثلنَا الأعلى، ثمّ من خلال قراءة القصص واختيار الرسوم المتحرّكة المروّجة لهاته القيم، ومن خلال الحوار المستمرّ معه، والذي يؤصّل عبْرَه لما عليه أن يكون عليه، في صبر وتؤدةٍ وحنكة كي لا

يثقل عليه من جهة، وكي لا يأمره بما لا يستوعبه من جهة أخرى، وكي لا يجعل أسئلته من غير ردودٍ تشبع نهمَه المعرفي، ودون أن نجعل منه وعاء.

4 - الجانبُ الذّوقي والتّربية على الجَمال:

«إنّ الضغط على الطبيعة البشرية خيّل لبعض الناس أنّ محبّة الجمال في آيات الكون نزعةٌ تخالف التقوى! وليت شعري لمن تُرسم صور الإبداع في قوله جلّ اسمه (أفلَم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بَنيناها وزيّناها ومالها من فُروج * والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسيَ وأَنبَتْنا فيها من كل زوجٍ بهيج»[1]

دينٌ قد سما بالرّوح البشرية إلى عالم القيم العليا، بل جعل الكثير من تشريعاته مبنيّة على رفض القبح أو تحبيب الجمال وتذوقه. أفليس حريّ بنا أن نربي النشء على هذا السمو وهذا الرقي، فنحدث الطفل عن ربنا الله الجميل، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة المثلى، الذي يحب الجمال في كلّ شيء، فما جمال الموجودات على كثرتها وتباينها سوى بعض آثار رحمته وجماله سبحانه.. خلق الإنسان في أحسن تقويم وصوره فأحسنَ صورتَه، وجعل أحبّ الخلق إليه مَن اتّصف بمقتضيات صفاته، فنعلمه كيف يتحبب إليه بجميل فعاله وطيب أخلاقه؟

تحفيزه على التفكر في ملكوت الله، وفي إدراك مواطن الجمال الحسي في مخلوقاته سبحانه، وتنمية حسه الفني، وتشجيع موهبته إن

(١) محمد الغزالي

كان يحب الرسم أو الكتابة أو غيرها من الفنون الجميلة، وتدريبه على النظافة والنظام والسمو والرقي في اختياراته سواء ما تعلق بملبسه أو مأكله ومشربه، أو قراءاته، أو ألعابه، أو ألفاظه وتصرفاته، وتدريبه على التمييز بين الرذائل التي هي قبح وبين الخصال الحميدة التي هي جمال.. فيؤسّس وجدان طفله على هذه المعاني، فيجعله يتمثل الجمال في حركاته وسكناته، ويدرب حسّه على مجّ القبح والنفور ممّا يخالف الذوق، فتسمو روحُه إلى الخير وإلى العدل وإلى معالي الأخلاق فيتشربها، ويجعل الجمال مرقاه إلى معرفة مولاه ذي صفات الجمال والكمال عزّ وجل.

5 -الجانبُ الانفعالي:

أهمّ ما في هذا الجانب، أن يكون المربي- هو قبل ذلك- متمرّنًا على فهم نفسه، وعلى فهم مَن حوله، واثقًا من نفسه، قادرًا على إدارة علاقاته بناءً على أسس الذّكاء الاجتماعي والوجداني، واعيًا بانفعالاته، قادرًا على السّيطرة عليها، ثمّ يأتي دورُه في تفهّم ردود أفعال الطفل إثر مشاعره المتقلّبة بتقلب أحواله المتمثّلة أحيانًا في الصراخ، أو العناد، أو الانزواء، أو غيرها؛ فهذا الفهم والتفهّم يساعده على اتخاذ المواقف التصحيحية المناسبة، وعلى الانخراط بإيجابية في الحدّ من السلوكيّات الخاطئة وتهذيبها، أو تشجيع الصحيح منها، أو لأجل إشباع بعض الحاجيات.

وفيما يلي رسمٌ توضيحي لأهمّ هاته المشاعر وبعض أسبابها وحاجيات الطفل خلالها:

الفرح
- الأسباب: اندهاش، إنجاز، نجاح، امتنان، هدية، لقاء...
- الحاجيات: مشاركة، تشجيع، حضن...

الحزن
- الأسباب: إخفاق، فقد، توديع، فراق...
- الحاجيات: احتواء، تقبل، حب، مشاركة، مواساة، تواصل، استماع،بحث عن طرق للنجاح...

الخوف
- الأسباب: خطر، مجهول، جديد، عدم الأمان...
- الحاجيات: حماية، طمأنة، تأمين، حب، حضن، استماع...

الخجل
- الأسباب: استهزاء، انتقاد، أحكام...
- الحاجيات:المساعدة على استعادة تقدير الذات، الاعتذار، التقبل والحب غيرالمشروط، الاستماع الإيجابي، الحضن ...

الغضب
- الأسباب: إحباط، ظلم، عجز، عدم احترام...
- الحاجيات: الإنصات، التفهم، الترميم، الحضن، المواساة

الطفلُ والكذب

ما الذي يجعلُ الطفل يكذب؟

١- مبدئيًّا، يلجأ الطفلُ إلى الكذب تشبّهًا بمَن حوله، خاصّة بالوالدين. فالأبُ الذي لا يفتأ يبرّر لتصرفاته بكذبٍ يظنّ أنّ الصغير لا يفطن إليه، والأمّ التي تستخدم الكذبَ وسيلة للتملّص من رغبات الصغير مثلًا، أو احتماء من أسئلته، فيوزّعان الكذبَ المجاني في مواقف متكرّرة؛ يكونان بصدد تنشئة طفلٍ كلُّ ذنبِه أنّه تلقّى تربية خاطئة، وتشبّع بالمثل الذي بالقرب منه، جعلت منه كذابًا.

٢- الخوفُ من العقوبة، ومِن فقدان ثقة المربي به: كثرةُ التّهديد وملاحقة الطفل بالتّأنيب ومحاصرته بالقلم الأحمر؛ تلجئه، عوضًا عن معرفة خطئه والاعتراف به، والابتعاد عنه لأنّه خطأ وليس لأنّه خائف من العقوبة؛ إلى الاحتماء بالكذب من عقوبةٍ حتمية عقب تصرّفه الخاطئ. وقد يكون تخوّفه ناتجًا عمّا سبق عنده مِن علم بردّة

فعل والديه، وقد يكون منبعثًا من خوفه؛ حتّى وإن كان غير موقنٍ بما يمكن أن يحصل له.. فيجد مفرّه في تزييف الحقائق، وملاذه في التدليس والتلاعب بالواقع.

٣- الكذب من أجل التملّص من الأشغال أو من تحمّل المسئولية أو التخلّص من ضغط: «قدْ أتممتُ واجباتي المدرسية- قد رتّبت غرفتي- أنهينا كلّ الامتحانات-..

٤- التشبّع بالإنجازات الوهميّة، ومحاولة رسم صورة إيجابية تحقّق له الرّضا عن نفسه وإعجاب الآخر به.

ولعلّ هذا راجعٌ- في الأساس- إلى اهتزاز ثقتِه بنفسه، أو إلى افتقاره إلى الاهتمام والتقدير والتّشجيع والحبّ والأمان، ممّا يجعله يتوهّم ما يشبع فيه هاته الحاجيات. فكم من مربٍّ أقام الدنيا ولم يقعدها ليس على درجات متدنّية في الدراسة، وإنّما لأن ابنه المتفوّق حصل على الرتبة الثانية بفارق بسيطٍ بينه وبين الحاصل على الدّرجة الأولى؛ فأشعل نيران الحروب، ونعتَ طفلَه بكلّ صفات الفشل والإخفاق، فأفقده الثقةَ في نفسه وفي قدراته، ممّا قد يلجئه لاحقًا إلى الكذب والتشبّع بما لم يعط.

٥- الكذب الإنشائي: هذا النوعُ من الكذب يختلط في الغالب بسعة خيال الطّفل، وبتمثّله ما يراه في الرّسوم المتحركة أو ما يقرؤه في القصص الخيالية، وهو الأكثر شيوعًا خلال الستّ سنوات الأولى، فالطفل لا يمتلك خلال هذه المرحلة العمرية القدرات المنطقية المخولة

للكذب الواعي المقصود، ولا تكون نيّته التلاعب بالآخر، وإنما يخلط بين الواقع والخيال، وبين الخطأ والكذب، وبين الحقيقة واللعب، فيبتعد بتفكيره عن الواقع، ويتمثّله بمخياله، فيخترع القصص، ويؤلف الحكايا.. ولعلّ هذه الملكة، ملكة الاختلاق والتّخيل مهمّة جدًّا لنموّه النفسي ولمساعدته على بناء شخصيته.

٦- الكذب بدافع الانتقام وإلحاقِ الضّرر بالآخرين: وهذا من أخطر أنواع الكذب، إذْ ينمّ عن شخصية عدوانيّة انتقامية هدمية، بل أحيانًا عن اضطرابٍ في الشخصية. ويتطلّب أحيانًا كثيرة تدخل مختصّ نفسي وليس فقط تعامل المربي مع الحالة.

كيف على المربّي مواجهةُ الكذب؟

ردّة فعْل المربّي أمام الكذب قد تتلخّص على العموم في موْقفين:

-أنْ يغلظ له القولَ وينعتَه بالكذاب، فيكون بذلك مشجّعًا له على أن يستمرّ في كذبه.. فالتّهمة قد التصقتْ به، والصّفة لن تخيفه بعدها لأنّ كلّ ما كان يخشاه فاحتمى منه في الكذب، وهو خشيته من اهتزاز صورتِه في عين والديه؛ قدْ وقع، وانكشفَ سرّه، فلن يهمّه بعدها أن يستمرّ: «مادام والدي قد نعَتَني بالكذب، فهذا يعني أنّني كذّاب، وما عليّ سوى الاستمرار الآن في الكذب».

-أو أنْ يظهر له أنّه يصدّقه جزئيًّا لكنّه يحتاج منه إلى مزيدِ جهدٍ لأجل أن تنكشف الحقيقة كاملة، ويطمئنه بأنّه من المُمكن أن يكون قد

أخطأ التقدير أو قدْ وَهَم، ممّا يساعد الطفل على التّراجع، وعلى تصحيح خطئه، وعلى استرجاع ثقتِه بنفسه التي اهتزّت جرّاء خشيته من اهتزاز صورته أمام والديه ممّا حصل، فيشجّعه ذلك على كشف الحقيقة، وعلى أن يتحرّى الصّدق لاحقًا لأنّه قد أمِنَ العقوبة من جهة، وضمن أنّ والديه لا يشكان فيه من جهةٍ أخرى ، ممّا يجعله يجتهد في الإبقاء على صورة طيبة في أذهانهم.

ولعلّ من أهمّ ما يجب على المربي أن يفعله أمام موقفٍ تأكّد فيه من كذب طفله:

-أن يتّهم نفسَه أولًا، وأن ينظر إلى تصرّفاته وإلى صدقه أو كذبه أمام من حوله، وأن يحاول أنْ يصحّح صورته في عيني طفلِه الذي لاحظ كذبه وتشبّع به، ولم يفعل أكثر من تقليده.

-أن يحاول، من خلال الحوار، أن يفهَمَ سببَ كذب طفله، وأن يصنف هذا الكذب وفقَ ما سلف من تصنيف.

-أن يؤمِّنه، وأنْ ينشئ له مساحةً آمنة للبوح، وللدفاع عن النفس، دون تضْييق أو محاصرة أو تعْنيف؛ حتّى يساعده ويحفّزه على الاعتراف بخطئه، ومن ثمّ مساعدته على تصحيحه والتعهّد على ألّا يعود إليه.

-أن يكون صارمًا فيأخذ عليه موثقًا، ويتّفق معه على تعهّد يلزمه بألّا يخلفه وإلّا كانت العقوبة، مع التّأكيد على مسألة الثقة المتبادلة التي يفضّل ألّا تُفقد بينهما.

-أن يراجع ردودَ فعله أمام أخطاء ابنه وتصرّفاته معه حين الوقوع في زللٍ ما، فيبتعد عن كثرةِ الحصارات والتّصحيحات والتهديدات والملاحقة بالزّجر وبالقلم الأحمر، وأن يحاول أن يعدلَ من بعض القوانين المشدّدة التي اعتادها في تربيته، فيجعلها أكثر مرونة حتى يشعر الطفل بحرية واستقلالية أكثر.

- في حالة تفطّن المربي إلى كذب طفله لأجل تلميع صورته والتشبّع بما لا يمتلكه؛ عليه أن يراجع علاقتَه به، وأن يعزّز فيه جوانبه الإيجابية، وأن يمدحَه وينوّه بخِصَاله الجميلة كي لا يلجئه غيابُ ذلك إلى توهّم البطولات، والاحتماء من سوء التّقدير بتلميع صورته. ليس مهمًّا أن يكون ما يصنعه مثاليًّا، ولا أن ينتظر أنْ يحصل على درجاتٍ عالية كي يقدره ويشجعه، يستطيع أن يختار مِن تصرّفاته العادية اليومية ما يجعله مادة للثناء: «شكرًا لك لأنّك حملت حقيبة أخيك- ممتنّ لك لأنّك أعطيتني كوب ماء- رسمتك الصّغيرة أبهجتني، أنت فنّان- لا أعلم ما كنت سأصنعه لو لم تجدْ نظارتي المختفية من مدّة... وهكذا، باغتنام كلّ فرصة لتشجيعه وزرع الثقة فيه.

- في حالة الكذب الإنشائي: الطريقة المثلى للتّعامل معه؛ أن يخبره المربي بأنّه يعلم أنه فقط يتخيّل، وبأنه سينضمّ إليه لأجل السّياحة معه في هذه العوالم، وبأنه سيشاركه خيالاته وتأليف القصص. ويؤكّد له على ضرورة التّفريق بين الخيال والواقع.

-في حالة انتهاج الكذب وسيلة وحيدة للتواصل، على المربي أن يبحث عن حاجياتِ الطفل غير المشبعة، والتي تلجئه إلى الكذب؛ فيسارع إلى تلبيتها من خلال التعرّف عليها عن طريق الحوار، أمّا في حالة الكذب المرضي الانتقامي، يجب على المربي أن يتدخّل سريعًا، وأنْ يعرض طفله على متخصّص قبل أن يستفحل الوضع.

-أن يذكّره قبل ذا وذاك بالرّقابة الإلهية، وأن يوقظَ فيه الحسّ الذوقي الجمالي الذي يأبى عليه التشبّعَ بالرذائل، وأن يحثّه على الإنصات إلى واعظِه الدّاخلي، وإلى ضميره الذي يجعله يفرق بين الخير والشرّ، وبين الجَمال والقبح، وبين الخصال الحميدة والمساوئ. يسهل عليه هذا، ما سبق الإشارة إليه في فقرة التربية الوجدانية.

الطّفلُ والخوف

الخوفُ من الأحاسيس الأساسية، إلى جانب الفرح والحزن والغضب، التي يشعر بها الطفل، والتي هي في الأساس ردّة فعلٍ تلقائية للدّماغ تؤثّر في كلّ الجسد (صعوبة في التنفس- تعرّق- خفقان القلب- تقلّص العضلات...) كي تعلنَ عن حالة خطر أو تهديد.

أسبابُ الخوف متعدّدة، قد تكون طبيعيّة كالخوف من حيوان مثلًا، وقد تكون متخيّلة، ومهْما كانت أسبابها، على المربي أن يتعامل معها بجديّة، من غير تنقيصٍ للطفل الخائف، ولا استصغار لأسبابِها، ولا عدم مبالاة بسبب عدمِ فهْم مسبّباتها، لأنّها وسيلة لتعبير الصغير وتواصله مع من حوله.

بعضُ أسباب الخوف:

- الخـوفُ من الظلام، ومن الوحْش، ومن الأشباح، وممّا يستوحونه من القصص وأفلام الرسوم المتحركة، ومن حديث الكبار،

يأتي في مرحلة معيّنة من الطفولة، وهي مرحلة عادية انتقالية يمرّ منها كلّ الأطفال، يغذّيها خيالهم الخصْب، فلا يفرقون خلالها بين الواقع والمتخيل، ويتفاعلون معها بدرجات متفاوتة.

– الخوف المكتسَب الرّاجع بالأساس إلى تجربةٍ سابقة مؤلمة، كزيارة لطبيبِ الأسنان، أو كحقنةٍ من ممرّض أو طبيب، أو إثر صدمة كان الطفلُ عرضةً لها أو شاهدًا عليها، كحادثة سيرٍ مثلًا، أو خصام عائلي عنيف، تدخل حيّز الذاكرة، فتؤرّقه وتؤلمه وقد تؤثّر سلبًا على كلّ حياته إنْ بقي رهينَ الخوف دون تدخّل خارجي لطمأنته والتهدئة من روْعه.

–اهتزازُ ثقته بنفسه، وسوء تقديره لذاته؛ قد يكون سببًا في خوفه.

–عدوى الخوف التي يتلقّاها الطفل من الكبار: فطريقة تعامل المربي مع خوفِه الشخصي، وردّة فعله قد تؤثّر على الطفل فيكون خوفه مدْعاةً لخوف صغيرِه من جهة، ولفقدان الأمان الذي يتوسمه عادة فيه.

– الخوفُ إثرَ ما يحكيه الكبار أمامَه من تخوّفاتهم الشخصية، مثل المرض أو الموت، أو نظرة الآخرين، أو من الفراق، أو من الفشل. فالطفل إسفنجة يتشرّب المشاعر السائدة حوله، ويتأثر بنوعية الخطابات التي تبثّ قربه.

– الخوفُ النّابع من التخويف: – احذر سيعضّك هذا الكلب– إن لم تسكت سأنادي الطبيب كي يعطيك حقنة– ستسقط – نمْ وإلّا سيأتيك «الغول»– بل أحيانًا يكون التّخويف بعذاب الله، وهذا أشدّ: اصمت وإلّا سيدخلك الله النار.

-إرغامُ الطّفل على القيام بما لا يحسن القيام به، ممّا يؤدّي به إلى الخوف من تجربةِ ما لا يفهمه، والرّعب من النتائج، وبالتالي يدخل في دوامة من الخوف، ومن فقد الثقة بنفسه.

كيف نخفّفُ من خوف الطفل؟

- مهْما كانت أسبابُ خوفهِ، يحتاج الطفل إلى مراعاةٍ خاصّة، وإلى مصاحبة واحتواءٍ وتفهّم لما يشعر به، وأنْ يفهم بأنه من حقّه أن يخاف، وبأنّ ذلك لا يعيبه في شيء، ومحاولة تفسير خوفه: طبيعي أن تخاف من الحِصان لأنّك أوّل مرّةٍ تراه أو تحاول ركوبه- أفزعك الكلب؟ لأنه نبح بشدّة. - يُخيفك الظّلام؟ لأنّك اعتدت على الإضاءة... وهكذا بشروحات مبسّطة.

- وإن كان المربي لا يفهمُ السببَ الحقيقي لهذا الخوف، إلّا أنّ طمأنته واحتواءه والإنصات إليه يساعده على تفريغ شعوره المؤلم، وعلى توضيح أسباب خوْفه وما يهدّده، وعلى إشعاره بالأمان الذي يخوّل له الثقة بالنفس والشّجاعة لتخطّي الخوف، كما أنّ الأسئلة تساعده على مزيدِ توضيح، فقد لا يستطيع أن يصفَ وأنْ يفصّل لوحده، فتساعده الأسئلة من قبيل: ما الذي أفزعَكَ بالضبط؟ نباحُه الشديد؟ أم لأنّه اقترب منك؟

- الاعترافُ بخوفه ومشاركته إحساسه بإخباره بأنّنا مررنا من قبل بتجربة شبيهةٍ، وبأنّنا كنّا عُرْضة لخوفٍ مماثل، وبأن هذا الأمر يحصل للجميع، مع التنبّه إلى عدم سرد وقائع عن خوف من أشياء هو الآن لا يخافها، فنكون السبب في خلق سببٍ جديد لخوفه.

-تذكيرُه بشجاعته وقدراته في مواجهة خوفٍ سابق والتغلب عليه في حالات سابقة مماثلة: أتذكر يوم قتلتَ الصّرصار بنفسك؟ - لقد استطعتَ حمل القطّة بين ذراعيك وإطعامها... مع الحرص على التأكيد على قدراته أكثرَ من التأكيد على درجة خوفه.

-مساعدته في إيجاد حلولٍ للحدّ من خوفه: فالطفل الذي يخشى الوحش، نستطيع أن نمدّه بسلاح، لعبة، كي يقاومه؛ مع التأكيد على أنّ الوحوش غير موجودة، وبأنه مجرّد تخيّل، وبأنه لن يحتاج لذلك السلاح، وأن نخبره بأن يستنجدَ بنا إنْ رأى الحشرة التي تفزعه، وبأننا سنساعده في قتلها. والهدفُ من هذا التثبيت والطمأنة، أنْ يكتسب مزيدًا من الثقة بنفسه كي يستطيع التغلب على خوفه.

-التحليلُ والشّرح يساعد على تخطّي عقبة الخوف، مع اختيار العبارات بدقّة: فعوضَ أنْ يقال له: لا تخشَ شيئًا! لن يؤذيك الطبيب. بالإمكان أن نشرحَ له ما سيفعله الطبيب بطريقةٍ مبسّطة: سيطمئننا الطبيب على صحّتك، وهو معتاد على مقابلة الأطفال مثلك يوميًّا.

-قد يكون خوفُه مصطنعًا، وقد يبالغ في ذلك لأجل استدرار عطفك وحنانك، والحصول بهذه الطريقة على إشباع حاجته في الأحضان وفي الحنان والعطف، وطريقته لإخبارك بتقصيرك.

-إنِ استمرّ خوفه بشكلٍ غير طبيعي رغم كلّ محاولاتك في إيجاد الحلول لأجل تخطيه، وأصبح هذا الخوف يمنعه من متابعة حياته بشكل عادي؛ يُفترض أن يُعْرض على طبيبٍ نفسي فقد يكون الأمر انتقل إلى فوبيا.

الطّفلُ العصبي

بعضُ الأطفال يختلفون عمّن هُم في سنّهم في مجموعة من الخصائص، كقوّة التعبير، وكثرة الحركة، والتفاعل مع الأحداث بتوتّر وعصبية وباستخدام حركات الجسد والعينين، أو برفض الامتثال للأوامر. فيجد المربّي صعوبةً في التعامل معهم، وفي جعْلهم يقضون طفولتهم في هدوء ومن غير مشاكل.

ولعلّ عصبية الأطفال من أكثر المشْكلات التي تعاني منها الأسر المعاصرة.. فالطفل أصبح في عصرنا أكثرَ انطلاقًا في التعبير عن ذاته، كما أنّ للمؤثرات الخارجية دورًا كبيرًا في جعل الطفل العصبي صعبَ المِراس، من أهمّ أسبابها، بالإضافة إلى ما هو عضوي، ما له علاقة بالأسرة نفسها، أو بالمحيط، أو في طريقة التعامل معه، أو ما له علاقة بنفسيته وغيرها.

كيف نساعدُ الطفلَ العصبي على أن يكون أكثرَ هدوءًا؟

- أوّل ما ينبغي التنبّه إليه؛ عددُ ساعات نومه، وتغذيته إن كانت كافية لطفلٍ في سنّه، خاصّة عند الأطفال الذين لا يستطيعون- بعدُ- التعبيرَ عن رغباتهم، فقد يكون توتّره وعصبيتُه نتيجة لنقص في أحد حاجياته الرئيسية.

– التنبّه إلى أنّنا غير متوتّرين عادة، وبأنّ عصبية الطفل ليست تقليدًا لعصبيّتنا، فقد يكون الطفل في حالةِ تعبير من خلال ما يراه أمامه، ومن خلال الصورة والانطباع الذي يأخذه عبر الحالة النفسية لوالديه ومن حوله.

–التنبّه إلى أنّ كمّ القواعد التي نلزمه بها في متناوله، وبأنها مفهومة، وبأننا لا نعجزه بكثرة الطلبات والأوامر والخطوط الحمراء، فيكون توتره وعصبيتُه تعبيرًا عن الرفض، أو عن عدم القدرة على الامتثال أو الفهم.

–التنبّه إلى أنّ العقوبات التي تفرض عليه موافقة لخطئه وليست مبالغًا فيها، فإحساسه بالظلم قد يؤدّي إلى عصبيته وتمرّده.

–إشاعةُ الأمان وتطويقُه بالحبّ والحنان، والبعد عن كثرة التوبيخ والملاحقة بالقلم الأحمر على كلّ صغيرة وكبيرة.

–تأمينُه من خوفه الطبيعي أو خوفه المتخيل واحتواؤه، وإلّا قد يكون توتره وعصبيّته وليدَ الشعور بعدم الأمان.

– تهيئتُه نفسيًّا وعمليًّا للأحداث المستجدة مثل: الدخول إلى المدرسة، أو ميلاد أخ أو أخت، أو انتقال من البيت، أو حتى في حالة تغيير الوضعية العائلية بسبب طلاق أو مرض أو غيرها؛ ممّا يشعره بالأمان، ويصرف عنه التوتّر المسبَّب بالجديد المجهول.

–إذا عُرِف السبب سَهُلَ العلاج.. مواكبة الطفل ومتابعته عن قرب تضع الأصبعَ على أسباب القلق والتوتّر والعصبية؛ فيعينُ على حلّ المشكل.

– الحوار والإنصاتُ والتفهّم وعدم تسفيهِ أسباب توتّره وعصبيته

مهْما كانت تافهة، ومساعدته على إدارة غضبِه وتوتره تارةً بالمساعدة، وتارةً بالتّشجيع وتنمية الثقة في نفسه.

– تقبّل الطفل كما هو، ومحاولة تفسير حالته بشكل إيجابي عِوَض إلصاق الصّفات السلبية به.. فهو ذو طاقةٍ زائدة تحتاج إلى معرفة تصريفها، عوَضَ وصفِه بأنّه لا يُطاق، وبأنّه صعب الضبط، وهو شغوف وحيوي عوَضَ وصفه بأنه عفريت أزرق.

–الابتعادُ عن الانتقادات، وعن إعطاء الأوامر بشكلٍ صارخ أو بشكل غير مفهوم. مخاطبتُه في ودٍّ تمتصّ عصبيته، وأمره في لينٍ يؤتي أكلَه أكثر من الأمر المتعسّف، وهي طريقةٌ لجعله هو أيضًا يطلبَ في أدب، ويخالف في أدبٍ من غير عصبية ولا صراخ.

–الابتعادُ عن المقارنات، ومحاولة فهْم شخصية الطفل من خلال ما هو عليه، وليس من خلال ما نحن عليه، أو ما نريده أن يكون. فقد يكون المربّي سلبيًّا جدًّا، أو هادئًا جدًّا في حين أنّ طفله حركي فعّال محبّ للإنْجاز والابتكار والاستكشاف، فيتصادم طبعُ المربي بطبع الطفل، ويكون الحكمُ عليه من خلال الطباع الشخصية وليس من خلال متوسط ما يجب أن يكون عليه.

– إنْ قام المربي بكلّ ما سلف، وتأكّد من أنّ طفله كثير العصبية، كثير التوتّر والحركة، أو أنّه لاحظ وقوعَ طفله في أزمة تشنج؛ يُفترَض أن يعرضَه على متخصّص.

الطّفلُ العنيد

قوّة شخصيّة، قوّة إرادة، شغف، شجاعة وإقدام، إحساسٌ عالٍ بتفرّده وتميّزه، وقدرة خارقة على معرفة ما يريده؛ هذا باختصارٍ معنى أن يكون طفلك عنيدًا.

ليس مِن المُمكن أن تمرّر له الخطابات دونَ بيان وتوضيح ومحاولة إقناع، ومع ذلك ليس من السّهل إقناعه. يرفض الأوامر، ويكره أن يحدّد له ما عليه فعلُه أو ما عليه أن يكون، وأثقل ما يثقل عليه أن يحدّ من حريّته، ومن استقلاليّته، وممّا يراه من تخصّصاته ومسئولياته.

طفلٌ بمثل هاتِه المواصفات، إنْ أحسنَّا تربيتَه والتعامل مع اختلافه، هيأنا قائدًا مميزًا، ومسئولًا محنكًا، وشخصية تقرّ بها العين حين النضج. صعوبةُ التعامل معه إنّما تنبع من عدم الوعي بما يجب فعله لأجل المحافظة على سماته الشخصية، وعدم طمسها بالقمع وسوء تدبير الاصطدامات.

فكيف مِن المُمكن أن يجعل المربّي مرحلة الطفولة والمراهقة تمرّ في سلام مع طفلٍ هذه خصوصيته؟

وكيف يمكن الحرصُ على إلزامه بالقواعد دون طمس لمعالم شخصيته المتفرّدة؟

- هو يكرَهُ الأوامرَ المباشرة، والمربي في حاجةٍ إلى تقعيد القواعد وتسطيرِ الحدود التي عليه ألّا يتعدّاها، وهنا يحصل الصّدام. ولعلّ حلّه الأمثلُ معه أن يمرّر الأوامر بشكل غير مباشر. فالمربي هو نفسه من يؤصّل للقوانين والنّظم، وهو مَن يسطّر الحدود، وكلّ ما عليه حين تأصيلها أن يكيّفها مع شخصية طفله، فيأخذ بروح القاعدة لا بهيئتها، ويحرص على تطعيمها بالتفهّم والتودّد المتلبّس بالحزم:

تريد أن تلبس وحدك، أم أساعدك؟ عوض عليك أن تلبس ملابسك وإلّا...

ستنام الآن أم بعد نصف ساعة؟ عوَضَ: عليك النوم الآن.

فالنّوم سيكون لا محالة، لكنْ باستشارته فيه؛ يعطيه المربي فرصة للاختيار، ولا يشعره بأنه يفرض ذلك عليه، فيضمن أن يمتثل راضيًا، وألّا يتمرّد على الأمر (سياسة رابح- رابح).

- تغييرُ المفاهيم عن الامتثال والخضوع تساعد المربي على فهْم نفسية الطفل العنيد. فليس المهمّ أن يفرض سلطته عليه، وليس مهمّته تطويعه وإخضاعه وجعله خنوعًا لا يحرّك ساكنًا إلّا بأمر، وإنما مهمة المربي الواعي أن يجعل الطفل يقوم بما يجبُ أن يقوم به بأيّة وسيلة ممكنة، وأن يحرصَ على إلزامه بالقواعد والنّظم بأقلّ الخسائر والمصادمات.

– العنفُ يولد تمرّده، ولا يؤدّي المطلوب، وتيقظ الطفل العنيد يجعله أكثر حساسية للكلمات ووقْعها، ولعلّ كلماتٍ تنمّ عن الاحترام والودّ تجعله أكثر استعدادًا لتقبّل المطلوب، وأكثر حماسةً للامتثال. ولعلّها مناسبة سانحة لتعليمه بأنّ الاحترام يسري في الاتّجاهين معًا. فالذي يحبّ أن يخاطب ويعامَل باحترامٍ عليه هو أيضًا أنْ يتصرّف بنفس الأسلوب.

– يحتاج إلى أنْ يثق بالتّجربة، فيما يقوله المربي. فإنْ وثق به أقلع عن المشاكسة وعن العناد، وتقبّل، بسهولة وعن طيب خاطر، كلَّ ما يصدر من المربي.

– التّعاقدُ والتعاهدُ والاشتراطات من أكثر ما يلائم الطفلَ العنيد في كلّ المعاملات، لأنّها تخاطب عقله وفهمَه، وتعطيه فرصة ليخرج من المعاهدة بربحٍ شخصي.

–وضعُهُ أمام اختيارٍ من متعدّد أيضًا شيء يُبْهجه. ما على المربي سوى تمكينِه من المتعدّدات التي تناسب في كلّ الأحوال، بحيث يكون كلّ ما يختاره الطفل لا يصادم التّوقعاتِ ولا النظام.

– شغفُه وحيويته إنْ علم المربي كيف يستغلّها، سيجعله يستجيب من غير مشاكل، ويتعلم ويتفوّق في تعلمه.

– كذلك حسنُ استغلال حبّه للمسئولية وللاستقلالية يقوّي شخصيته ويمنحه ثقة أكثر في نفسه.

-هو يحبّ التّجريب، ويتعلّم أكثر من الممارسة، وتركه يتحرّك في مساحة أكثر حرية مع المراقبة من بعيدٍ دون تدخّل مباشر تنفع معه. مع الحرص على عدم تأنيبه وتبكيته في حالة الإخفاق، وعلى تشجيعه والتنويه به في حالة النجاح.

-عدمُ التّأنيب والتبكيت لا يعني أن نصنعَ منه طفلًا- ملِكًا، ولا يعني بحال تربيتَه على الغرور وعلى عدم الاعتراف بالخطأ، وإنّما على المربي أن ينهجَ النّهج السليم في تعريفه بخطئه من غير تأنيب ولا سخرية.

الطّفلُ الخَجول

يتحدّد انطواءُ الطفل وخجلُه من خلال مزاجِه وسلوكياته، ومن خلال تصرّفاتِ والديه، وأيضًا من خلال التجارب المعيشة.

عادة، يظهر ذلك في ضيقِه وارتباكه أمامَ الغرباء، وفي تمسّحه بوالديه والتصاقه بهما عند لقاءِ الناس، وفي عدم مسارعته للّعب مع الأطفال من سنّه، وفي عدم استطاعته الحديث والردّ على مَن يسأله، وفي غيرها من الصّور والمواقف التي تثبتُ أنّه يعاني من الخجل.

مزاجُه يحدّد طريقة تعامله مع مَن حوله، وكيفية إدارة مشاعره وأحاسيسه، وردود فعْله، وطريقة تكيّفه مع الوضعيّات الجديدة، ومع مقابلة الغرباء. كما أنّ الوالدين اللّذين يستعملان العنفَ والتأنيب والتخويف؛ يفقدان الطفل الشّعورَ بالأمان، ممّا يؤدّي إلى انطوائه وخجله. يصاحبُه الخوف بشتى أنواعِه، ويعيش في حالةِ انقباض من الغرباء ومن المجهول ومن الوضعيّات الجديدة، ممّا يجعله منعزلًا عمّن حوله، متقوقعًا داخل تخوفاته.

فكيفَ مِن المُمكن أن يساعد المربي طفلَه الخجول؟

-أوّل ما يجبُ الحرص عليه؛ تحقيقُ الأمان الذي يفتقده، وذلك بالقرب منه، والإنصات إليه، ومساعدته على التعبير عمّا يحسّه، وبإظهار تفهّم ما يحصل له، وبطمأنته وبثّ السكينة في قلبه.

- زرعُ الثقة فيه؛ وذلك بتشجيعه ومساعدته على استكشاف مواهبه، وتنميتها ومدح صفاته الجميلة، وإشعاره بالحب والتقدير.

- مساعدتُه على خوض تجاربَ إيجابيةٍ يبرز فيها قدراته، وتنمو من خلالها ثقته بنفسه، ورضاه عن أدائه، كتركِه يخوض تجربةً جديدة باستكشافِ المحيط حوله، أو بركوب الدراجة، مع الحرصِ على القرب منه، ومساعدته في حالةِ الطوارئ دون كثيرِ تدخّلٍ أو توجيه.

-مساعدتُه وتشجيعه على خلْق علاقاتٍ مع محيطه ومع الأطفال من سنّه.

-تهيئتُه نفسيًّا قبل الخروج ومقابلة الغرباء، أو قبل زيارة مَن لا يعرفه، بإخباره بأسماء الضّيوف، وبأنهم سيسعدون للتعرّف عليه وسيسعد بمعرفتهم.

-تشجيعُه على التقدّم نحْو الآخرين، ولو بشكلٍ طفيف من خلال ابتسامته أو التّلويح بيده، دون إرغامه على مزيدِ تقدّم.

-الابتعادُ عن إحْراجه أمام الآخرين، أو تعْييره بخجله، أو بوصفه بأنه غير عادي، أو بمقارنته مع إخوته أو الأطفال من محيطه غير

الخجولين، وأيضًا الابتعاد عن ذكر مواقفه الخجولة لمَن حوله.

-الحرصُ على تكوين علاقةِ صداقةٍ مع إخوته ممّا يبعده عن العزلة ويساعده على التواصل أكثر.

-الحرصُ على عدم الزجّ به في وضعيّة فشلٍ لا يستطيع خلالها تدبر خجله، مثل تركِه مع مجموعة لا يعرفها.

الطّفلُ والغِيرة

تظهرُ مشاعرُ الغيرة الطبيعيّة عند الطفل في الغالب حينما يحسّ بأنّ حبّه الأموميّ مهدّد، وبأنّ هناك مَن سيشاركه فيه.

يبدأ الأمرُ مع والده، ثمّ يتطوّر الأمر حين مجيء إخوة جُدد، ممّا يهدّد شعوره بالأمان: هل مكاني مازال محفوظًا في قلب أمّي؟ ألن تفضّل عنّي هذا الصّغير الذي أصبح لا يفارقها؟ ما مصيري وما وضعي بعد الآن؟

فهو- إذًا- شعورٌ وليدُ تخوّف ونقص أمان، ونابعٌ من طريقته في تحسّس العالم الذي يظنّه متمركزًا حوله وحول رغباته، ممّا يجعله غير قادر على تفهّم حاجيات الآخرين، وممّا يشعره بالذنب بسبب غيرته.

يتفاقمُ هذا الشعور عند ارتيادِه الحضانة، واستكشافه عوالمَ رفاقِه المختلفة عنه، والتي هي في نظره- في غالب الأحيان- أحسن ممّا لديه، فقلمُ رفيقِه أحسنُ من قلمه، ولعبتُه أفضل، وهكذا.

فكيف نساعدُ الطفلَ على تجاوز غيرته؟

- عدمُ التنبّه لأسباب غيرته، أو التّعامل معها من غير حنكةٍ قد يجعلها تتفاقم، وقد تحاصر الطفلَ في ألمه، يذكّيها المقارناتُ بين الإخوة،

والتّفضيل، وعدم العدل، أو عدم بيان سبب التّمييز الذي قد يكون عاديًّا بسببِ تباين الأحوال. فالطفلُ الصّغير يحتاج إلى رعاية خاصّة من إرضاع وتغيير ملابس وغيرها، في حين قدْ يستغني الطفل الأسنّ عن ذلك فيحتاج إلى أن يفهَمَ هذه الفوارق. كما أنّ شراء هدية لطفلٍ بمناسبة ذكرى ميلاده، لا تخوّل للآخر الحصول عليها إلّا عند نفس المناسبة، وهكذا.

– التنبّه إلى تصرّفاتنا معه، فقد يكون كلامُنا أو ردودُ فعلنا سببًا في تذكية هذا الشعور.

–التّواصلُ المستمرّ معه يجعله يُخْرِج ضغائنَه ويفسّر سبب غيرته.. تصحيح مفاهيمه تساعده على تجاوزها.

–تأمينُه ودعمُه واحتواؤه والتعبيرُ له عن الحبّ بشكل مستمرّ؛ يساعده أيضًا.

–التّقديرُ والتشجيع وإشعارُه بالافتخار به؛ يشعره بالثقة بنفسه.

–عدمُ التدخّل في شجاراته مع إخوته يساعده على خلقِ علاقةٍ جيدة معهم. فالصّلح الذي يأتي بعد خصام، واللعبة التي يسلّمها لأخيه عن طيب خاطر، أو يتسلّمها منه بعد مشاحنة تطوّر العلاقة بينهم وتنفي تهمة تدخّل الوالدين لنَصْر الآخرين عليه.

– حسنُ التّعامل مع غيرته وتفهّمها يساعده على النموّ، وعلى تطوير علاقته بمَن حوله، فمحاولاتُه للتغلب عليها سيجعله يحاول خلقَ علاقات جيدة مع إخوته أو أقرانه.

كيف نربّي الطفلَ على الثّقة بالنّفس؟

إن كان مِن دورٍ للمربّي في التعامل مع مَن ولّاه الله مسئولية تربيتهم، بعد ربطهم بالمولى- عزّ وجلّ- وبثّ القيم والأخلاق فيهم؛ فهو تدريبهم على الثّقة بالنفس. لا ينقصهم الذّكاء، ولا يفتقرون للمهارات، وإنما تَعوزهم الثّقة بأنفسهم، فيحول ذلك بينهم وبين التفوّق والإنجاز والإبداع.

فكيف نربّي في النشء ثقتَهم بأنفسهم؟

١- الصفات هويةُ الإنسان وقوّته الحميمية.

تعريف الأطفال بمحاسنهم وصفاتهم الجميلة، وجعلهم يستكشفونها؛ من أنْجَع ما نحفّزهم به على اكتساب الثّقة بأنفسهم، ولربّما استردادها بعد كلّ أزمة ثقةٍ بسبب الإخفاقات أو بسبب ما يلاقونه من العالم الخارجي من إحباطات ومواقف قد تشكّكهم في مواهبهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم.

جردُ صفاتهم، يجعلهم يفهمونَ أكثر مَن هُم، ويصحّحون نظرتهم لأنفسهم، ويتعرّفون على نظرة مَن حولهم لهم، ويستكشفون الجيدَ من أفعالهم فيفتخرون بإنْجازاتهم وإبداعاتهم ومواقفهم السّليمة، ويعزّز فيهم- إنْ كانت المتابعة جيدةً من طرف المربي في كلّ المراحل- الاستمرارَ على ما هم عليه، والتفوق أكثر.

٢- طبعُ الطفل، بل مزاجُه، يؤثّر كثيرًا في طريقة اكتساب ثقته بنفسه. ووعْي المربّي بهذه الفوارق بين مختلف الأطفال وتزكية الإيجابي منها ومحاولة تصْحيح السلبي؛ ما يجعل الطفلَ ينعم بالثقة بنفسه. فالطفل الذي يتعلّم من خلال المحاولات المتكرّرة والإخفاق، ليس هو الطفل الذي يتعلّم بالمُلاحظة. فالأوّل لا يخشى المغامرة ولا يتهيّب المخاطرة، فيكسبه انطلاقُه ذاك ثقةً بنفسه. في حين أنّ الثاني يحتاج إلى مُهْلة كي يتعرّف على مَن- وما- حوله إلى أنْ يشعر بالأمان، وهذا قد يجعله يخشى الإخفاق، فيتردّد كثيرًا قبل أن يأخذ مبادرةَ الفعل، وقد لا يأخذها لنفس الأسباب الآنفة، ممّا قد يفرمل ثقتَه بنفسه، فيحتاج إلى تدخّل لأجل التّحفيز والمواكبة.

٣- قيامُ المربّي بالأعمال عوضًا عن الطفل، ومساعدته الدّائمة له تمنعه من اكتساب ثقته بنفسه، فضلًا عن تطويرها. في كلّ مراحله العمرية، يكون الطفلُ في الغالب محبًّا للاستطلاع، شغوفًا بالتجريب والاستكشاف. زجره أو منْعُه أو القيام بذلك عوضًا عنه؛ يقتل فيه حبّ

الانطلاق، والافتخار بالإنجاز، ويجعله اتّكاليًّا دائم الخوف، متقوقعًا خلفَ حواجز وهمية تشكلت في ذهنه الصغير بسبب كثرة التدخلات.

٤- نحنُ لا نولد بجينات حاملةٍ للثّقة في النفس، وإنّما نكتسب ذلك من خلال المواقف والتّجارب، ومن خلال المحيط حولنا. طريقة تعامل المربي مع إخفاقات ونجاحات الطفل، تؤثّر بالسلب أو بالإيجاب على اكتسابه ثقته بنفسه. المربي كثيرُ الانتقادات، والمربي الذي لا يثمّن جهود طفله مهْما كانت، ولا يحفّزه على المواصلة، والمربي الذي يمارس ضغوطات كثيرة على طفله؛ ينمي فيه الخوف وعدم الأمان. هو يحتاج إليك، في كلّ مواجهة جديدةٍ مع الحياة لقلّة خبرته وتجاربه؛ كي تعلّمه التمييز بين الخير والشر. حوارُك المستمرّ معه، وشرحك المبسّط للظواهر والمشاكل التي تواجهه؛ تساعده على الفهْم وإيجاد الحلول، وبالتالي الثّقة بالنفس.

٥- التّفوق الدراسي تحت الضّغوطات المستمرة من مربٍّ راغب في جعل طفله من الأوائل؛ قدْ تفقده الثقةَ بنفسه. الضغوطات تولّد عدم الأمان، والشكّ في القدْرات، والخوف المستمرّ ألّا يكون عند حُسن ظنّ المربي.

٦- الخيالُ يساعد الطّفل على تجاوز مخاوفه في الواقع. قصص قبل النوم، وتحفيزه على قراءة القصص العجيبة حيث الأخيار والأشرار، والأمراء والوحوش، والنهايات السعيدة، وانتصار الخير في الأخير؛ تساعد الطفل على تحْويل كلّ مخاوفه الواقعية إلى عالم الخيال، وتجعله

يكرّر عيش بعض مشكلاته في عالمه المتخيّل؛ كي يستطيع التّعامل معها وتجاوزها، والاطْمئنان إلى أنّ الانتصار في الأخير للخير، وهذا يكسبه الثقة بنفسه.

٧- التّربية المتوازنة التي تجمع بين الاهتمام بالجسد والروح والعقل (انظر فصل: كيف نربّي طفلًا متوازنًا).

٨- التفكيرُ السّلبي، والتّخويف من الفشل، وانعدام التّحفيز كفيلة بصُنع طفل فاقدٍ للرغبة، وبالتالي للثّقة في نفسه. يحتاج إلى التّفكير الإيجابي الذي يعطي مساحات كافية للاستعداد للفعل، وتحفّز على الشعور الإيجابي الخلّاق، وعلى التفتّح على الجديد والمجهول والإبداع. (ليست نهاية العالم أنّك أخطأت/ ما الذي حصل بالضّبط فجعلك لا تصلُ هدفك؟/ كيف تستطيع استغلالَ إمكانيّاتك بشكلٍ أفضل كي يتسنّى لك إحراز التقدم؟...) وغيرها من الأسئلة التي تضعُ الأصبع على البحث عن الحُلول أكثر من الوقوف عند نقطة الإخفاق.

٩- وفي المقابل، الرّسائل الإيجابية تكسب الثّقة بالنفس. نستطيع بكلّ سهولة كتابةَ مجموعةٍ من الملصقات منها بحجرة الدّرس أو بغرفة الأطفال كي تكون على الدّوام على مرأى منهم:

- أنت رائع.
- من حقّك أن تخطئ، وبمقدورك تصحيح خطئك.
- لديك القدرة على تحقيق الأفضل.

- لديك مواهب متعدّدة.
- لاحقْ أحلامك، لديك كلّ القدرات لتحقيقها.
- السّعادة بالقرب منك.
- أنت مُحاطٌ بالحبّ.
- تستطيع أن تختار بنفسك.
- تستطيع الفهم والوصول وحدك.
- لديك حقّ التفكير، وحقّ الإنجاز والإبداع.
- لديك الأفكار والحلول، وتستطيع مشاركتها مع مَن حولك.
- أنتَ عبقري، لديّ الثقة في مهاراتك.
- امنحْ كلّ ما عندك من جهد، واستغلّ قدراتك كلّها، تستطيع التفوق وليس فقط النجاح.
- لديك كنزٌ ثمين في أعماقك.

١٠- إشراكهم في التّفكير والبحث عن الحلول: ما رأيك في كذا؟ ماذا ترى أنت؟ كيف تشعرُ تجاه هذا الأمر؟ ما الذي يروّج في رأسك حينما أقول كذا وكذا؟ ما الحلول الممكنة للأمر الفلاني؟

١١- إشعارهم بأنّهم جزء من هذا العالم الفسيح، وبأن أدوارهم لا تقلّ أهمية عن أدوار الكبار:

- تستطيع من موقعك المساهمة في عالم أفضل.
- كيف يمكنك تغيير العالم؟ ما خطتك لذلك؟

– ما نصنعه عن شغف وبحبّ، ننجح في الغالب فيه.

١٢ – تعويدهم على العمل الجماعي، وتحفيزهم على الخلق والإبداع المشترك لما له من دورٍ فعّال في اكتساب خبرات مَن يشاركونه العمل، وفي الشعور بالأمان أكثر لتشارك مهمّة النجاح، وفي التكامل واستكشاف نقاط الضّعف الذاتية ونقاط القوة عند الآخرين والعكس، في التعاون على إيجاد الحلول.

١٣ – يحتاجون أيضًا إلى ثقة المربّي بنفسه، وقوة شخصيته، وتمكنه ممّا يخبرهم به كي يشعروا بالأمان، وكي يتعلّموا كيف يصنعون شخصياتهم وثقتهم بذواتهم.

المربّي، أبًا كان أو مدرّسًا أو مؤطّرًا، إنْ لم يشعرهم بتناغمه مع نفسه ومع أقواله، وإن لم يبهرْهم بشخصيته وبتفرّده وخصوبة أفكاره وتميّزه في الأداء وإبداعه؛ فلن يحصل منْهم على ثقتهم به، وبالتالي سيجعلهم مُضْطربين مترنّحين غير قادرين على ربط رسم صورةٍ متكاملة عنه وعن المعلومات في أذهانهم، ولربما رفضوه ورفضوا بالتّبعية ما يقدّمه لهم.

كيف نربّي الطفل على تحمّل المسئولية؟

تربيةُ أولادنا بطريقة الثواب والعقاب قدْ لا تعطي على الدّوام أُكُلَها، والأفضلُ من ذلك أن نربيهم على تحمل المسئولية.

«رتّب غرفتك،

اعتنِ بألعابك وكتبك،

احرصْ على نظافة أسنانك،

ابرَعْ في دراستك»

ليس لأنني سأعاقبه بالمنْع مثلًا في حالة التمرّد، ولا لأنني سأكافئه على حُسن اتّباعه النصائح، ولكن لأنّه مسئول عن كلّ تلك الأشياء باعتبارها ملكًا له وتخصّ شأنه.

وسيلة ليس فقط لتعليمه تحمل المسئولية، ولكن لتلقينه كيف يقدّر ذاته، وكيف يبدع، وكيف ينجح في حياته الشخصية والدراسية.

الطّفل في علاقته مع الخطأ ومع المُشْكل، يبحث في الغالب عن التملّص والتخلّص منه، فإنْ ربّيناه على العقاب بعد كلّ تصرفٍ غير لائق، ذكّينا فيه القبولَ بالعقاب في مقابل التملّص من المسئولية، لكن بالمقابل، إن عوّدناه على مناقشة الخطأ، والبحث عن حلول لتفاديه وتجاوزه، قويَتْ شخصيته.

خطؤه حينما يخطئ ليس نهاية العالم.

حينما تخبره بأنّ الخطأ طبيعة بشرية، وبأنّه من العادي أن يخطئ، وبأن الأهمّ أن يدرك كيف يصحّحه؛ فإنك بذلك تساعده على النموّ، وعلى اكتساب الثّقة بنفسه. عوض التقريع والتّوبيخ المجرّد، تستطيع أن تساعده على استكشاف خطئه والاعتراف به، ومن ثمّ تصحيحه.

إنّ أكبر جريمة نقترفُها في حقّ الناشئة، أنْ نفترض فيهم الملائكية، وأن نلزمهم بعدم السّقوط في أخطاءٍ نحنُ أيضًا اقترفناها، بطريقة أو بأخرى، حينما كنّا في أعمارهم.. ظنًّا منّا أننا بذلك نحميهم، فإذا بنا نطمس شخصيّتهم، ونهدرُ حقّهم في الخطأ.

دَعوهم، من حينٍ لحين، يقرّرون ويتحمّلون مسئولية قراراتهم (ما لم تقدّروا أنّ لها نتائج خطيرة عليهم، أو على مَن حولهم)، من غير كثير تدخّل ولا تقريع ولا مواعظ إنْ كانت النتائج سيئة. الاكتفاء بذكر ما يمكنه أن يعترضه إن أصرّ على التّجريب من غير كثير إقناع أن

يتراجع عن قراره، وتذكيره بأنّه في كلّ الأحوال؛ عليه أن يتقبّل النتائج، وبأنه في أقْصى الأحْوال؛ سيكون ملزمًا بإعادة الكرّة، ومحاولة تصحيح ما يمكن أن ينتج في حالة الإخفاق.

«ألم أنبّهك؟ ألم أخبرك؟ أنتَ عنيد وهذه النتيجة» وغيرها من العبارات التي تقتلُ في الطفل؛ ليس فقط روحَ الإبداع والتفكير خارج الصندوق والمجازفة ورفع التحدّي؛ وإنّما تقتل فيه الثقة بالنفس، وتولّد لديه إحساسًا بأنه لا يصلح لشيء، ويصنع حاجزًا نفسيًّا بينه وبين الإنجاز، ويولد لديه كرهًا دفينًا للمعاتب، وخوفًا من انتقاداتٍ يمكنُ الاستبدال بها:

«ليست هذه نهاية الكون، تستطيع التّجريب بطريقة أخرى. هل أدركت موطنَ الخلل لكي تستطيع تصحيحَه؟ إن احتجتَ مساعدتي في شيء فأنا هنا..».

اتْركوهم يحاولون ويُعيدون الكَرّة، ولا تتدخّلوا بالمساعدة إلّا إذا طُلب منكم ذلك، أو تبيّن لكم خطرٌ ما يهددهم.

ترْكُهم يجرّبون نتائجَ تصرفاتهم؛ يساعدهم على الاختيار وعلى تعلّم اتخاذ القرارات وتصحيح المسارات.

سياسة التّعاقد مع الطفل؛ من أنجعِ وسائل التربية، وأقرب وسائل الحوار المُثمرة.

لا يريدُ أن يأكل: نفهم منه سببَ عدم رغبته تلك، ونحاول أن

نجعله يعطينا الحلول.

لا يريد أن يلبس ملابسه صباحًا للذّهاب إلى المدرسة، أو يأخذ وقتًا أطول في ذلك: نحاول أن نشرح له أنّ الأمر مزعجٌ لنا ولا يناسبنا، ونطلب منه أن يطرحَ البدائل.

في الغالب بدائلُه تكون بسيطة جدًّا، ومقدورًا عليها:

يريدُ أن يختار ملابسه بنفسه.

لا يحبّ الأكل لأنّه لا يشعر بالرغبة في ذلك بمجرّد استيقاظه، أو لأن الأكل روتيني، أو لأسباب كثيرة أخرى بعيدة كلّ البعد عن تفسيراتنا لها بالتمرّد. هو ينصت إلى «ساعتِه الداخلية «، وبالتالي سيأكل حينما سيحسّ بالرغبة أو بالجوع، وليس تحت تهديداتنا، لأنّ أوّل نتائج التّهديد؛ التمرد الحقيقي، أو الترجيع، أو الإحساس بالظلم.

وسيلبسُ الملابس التي شارك في اختيارها، أو أُقْنع بها، وليس تلك المفروضة عليه بالصّراخ والتهديد.

لكن، إنْ تبيّن أنّ اختياره وإصراره قد يضرّ به، أو أنه يخالف القواعد أو الأعْراف، فهنا يأتي التدخّل الحازم للمربي، من غير صراخٍ ولا ضرب ولا تهديد. «سنلبس هذه الملابس؛ لأنّها المناسبة لك الآن، وسنلبس ما تريده مرّة أخرى في مناسبةٍ أخرى» في حزم، ودون ترك فرصةٍ للاحتجاج أو لفرضِ رأيه.

على المربّي أن يكونَ واعيًا بالأمور التي من المُمكن أن يتفاوض

معه فيها، وبين الأمور التي يجب أن يلزمه بها إلزامًا لا هوادة فيه. يستطيع بكلّ سهولة أن يكون مرنًا معه في أمور الأكل والملبس وغيرها من الأمور الحياتية البسيطة التي لا يترتّب على المرونة فيها مساوئ، لكنه مطالَبٌ بالحزم في الأمور الجوهرية مثل الصلاة أو الحجاب للبالغة، أو التمرّد على السلوكيات والأخلاقيات والبذاءة والعنف. نبيّنا- صلى الله عليه وسلم- قد أرشدنا إلى هذا التّفريق في قوله- صلى الله عليه وسلم- : (مُرُوا أولادَكم بالصّلاة وهُم أبناء سبع سنين، واضْربوهم عليها وهُم أبناء عشر سنين.. الحديث) أخرجه أحمد وأبو داود. فالصّلاةُ من الأمور التي لا يؤخذ فيها الرأي ولا تخضعُ لمفاوضات، وإنّما المعمولُ به تعليمهم منذ سبع سنوات، والحزمُ معهم ابتداءً من العشر.

تركُ الطّفل يتعامل بنفسه مع واجباته المدرسية؛ طريقةٌ مثلى ليس فقط لراحتِك أنت، بل لجعله يكتسبُ الثقة بنفسه، ويبتعد عن الاتّكالية، ويواجه الخطأ فيتعلّم كيف يصحّحه.

لا يعني تركُه يتعامل مع واجباته المدرسية؛ التنصّل من مسئولية المتابعة. يفترض أوّلًا أنْ ندرّبه على التنظيم، وذلك بجعله- منذ السنة الأولى الدّراسية- يكتب المطلوب منه في مذكّرة خاصّة حتى لا ينسى ما عليْه فعلُه. ربما في المدارس الخاصّة الأمر هيّن؛ لأنّهم يرسلون الواجبات مطبوعة أو مكتوبة بالدّفتر اليومي، لكنْ بالمدارس العمومية، قلّما تجد مَن يفعل مِن المدرسين. وعلى هذا، فلنعلّمه أن يكتب داخل الفصل

التّمارين والواجبات المطلوبُ منه إنجازُها بدفترٍ مخصّص لذلك، ثمّ بالبيت.. نعلّمه أنْ يبدأ بالأيسر، ومادّة تلو أخرى، ويترك الأصعب إلى النهاية. دورك كمراقبٍ توجيهُه إلى كتابة الإجابة بمسوّدة، بحيث تبرز مهارته في التعامل مع السّؤال، وأيضًا فشله في حلّه.

كخطوةٍ أولى نحاول تنبيهه إلى خطئه، وبأن يحاول مرّة ثانية، فإن أخفق، نحاول أن نحدّد له موطن الخطأ، فإن أدركَه نجعله يصحّحه، وإن لم يدركه فلنعلَم أنّه غير متمكّن من الدّرس إيّاه، وبالتالي يَحْسن بنا أن نعيد شرحه بإعطاءِ أمثلةٍ مختلفة، ثمّ نعرض عليه تمارين مشابهة للتمرين المطلوب منه، فإن تمكّن منها نطلب منه مرّةً أخرى إعادة التمرين المطلوب، بل وفي مرحلة متقدّمة؛ نطلب منه أن يحدّد لنا سبب خطئه بداية فيه، وكيف تغلّب عليه.

ثقافةُ الاعتراف والاعتذار مِن أكثر ما يربّي شخصية الطفل بشكل مُتوازن، ويعلّمه تحمّل المسئولية.

اعْتذروا لهم، وعلّموهم أن يعترفوا بأخطائهم وأن يعتذروا، وافتحوا أمامَهم فرصًا ليصحّحوا أخطاءهم وليقترحوا الحلول للتعديل.

طفلُك استولى على لعبةِ أخيه وكسرها، علّم(ي)ه أن يعترف بأنه مَن فعل، وأنْ يعتذر لأخيه، واطْلب(ي) منه أن يصحّح خطأه. إن لم يهتدِ لشيء، فاسأل(ي)ه أن يوفّر من مصروفه كي يعوّضها له، أو أن يعطيه مثيلتَها من ألعابه، واحْرص(ي) على أن يتمّ الأمر.

الأمثلةُ كثيرة، لكنْ هذه ومضةٌ قد تفتح الآفاق أمام المربّين كي يبدعوا في تلْقين ثقافة الاعتراف والاعتذار لَمن ولّاهم الله أمرَهم.

علّموهم القناعة، وأشْركوهم في تحديد الأولويّات، ولا تنساقوا مع كلّ رغباتهم فإنّها لا تنتهي.

المنعُ التّام يجعلهم دائمي التّطلع لما بين أيدي أقرانهم، وبسط كلّ اليد معهم تعلّمهم الجشع وقلّة القناعة، ولا تهيّئهم إلى تغيّرات الأحوال. التوسط في الإنفاق، والإغداق عليهم من حينٍ لحين، والامتناع أحيانًا مع إقناعهم بسبب هذا المنع.

الحوارُ والتّواصل يفيد كثيرًا في هذا، وإشراكهم في توزيع الميزانية بل وإنْفاقها يعلّمهم تحمّل المسئولية، ويجعلهم يعذرونكم في حالة ضيق ذات اليد.

كيف نربّي طفلًا واثقًا يقدّر ذاته، ويحترم مَن حوْله؟

الاحْترام

احْترموا أطفالكم..

احْترموا أفكارَهم وميولاتِهم واقتراحاتِهم وخصوصياتهم، وأشركوهم اهتماماتِكم، وشاركوهم عوالَمهم الصّغيرة الجميلة البريئة.

احْترموهم، فإنّ في احترام عقولهم تعليمًا لهم أنْ يحترموكم، وأن يسعدوا بتوجيهاتكم مادُمتم تعترفون بوجودهم ومشاعرهم، ويربّي فيهم قوة الشخصية والثقة بالنفس.

احترمْ ابنَك أمامَ الناس، وامدحْه عوض أن تعرض سجلّ سيئاته المخبوءة عليهم. أخطاؤه وحدَك المسئول عن تصحيحها معه، لا حقّ لأحدٍ أن يطّلع عليها، ولا أن يفقد طفلك اعتباره بسببها أمامهم.

المدحُ يزيد مِن شعوره بالاعتبار، وجرد أخطائه وشغبه أمام الغرباء

تحطيمٌ له، وتدريب له على فقْدِ الأمان والثّقة[1] في نفسه، وفيك أيضًا.

اكتسابُ الطفل القيمَ الدينية والمجتمعية من المربي من خلال محاكاة السّلوك والتفكير المنطقي والتوجيه المباشر؛ سيساعده على النجاح في علاقاته بمعرفةِ ما له وما عليه، وسيعزّز من نموّه الذاتي. فالحثّ الدائم على احترام المقدّسات الدينية، ومراعاة مشاعر الآخرين، وتعزيز الاستقلاليّة وامتداح الإنجاز، وتوفير الأمن؛ من الأشياء التي تجعل الطفل يقدّر ذاته، ويحترم مَن حوله.

علاقة الأخذِ والعطاء بين الأبناء والآباء الإيجابيّين، المدركين لدوْرهم في تحقيق سعادة أطفالهم، المتّسقين مع سلوكياتهم ومعاييرهم؛ تسهم بشكلٍ كبير في نهْل الأبناء من نفْس المعايير. فالطفل الذي يربّى على المعايير السّلوكية ويطّلع عليها بشكل مفهوم، ويحظى مِن جهة بالتّحفيز المستمر، ومن جهة بحبّ المربي حتّى في حالة الخطأ واعوجاج السلوك؛ أكثرُ الأطفال التزامًا بقيم آبائهم.

التّحصيل الدراسي من أهمّ المحفّزات على تقدير الذات. لكنّ المربي يحتاج إلى حِنْكة كبيرة حتى لا يجعل من هذه القيمة حجرةَ عثرة في

(١) عبارتا «الثّقة بالنفس» و«تقدير الذات» تستعملان في الغالب كمترادفتين، لكنْ في حقيقة المعنى، البونُ شاسع بينهما؛ أن تقدّر ذاتك يعني أن تكون واعيًا بقيمتك، عالمًا بمواطن قوّتك وحدودها. ولأجل تقدير الذات، يفترض أن يحظَى الشّخص أولًا بثقتِه بنفسه. وهذا ينطبق أيضًا على الصّغار؛ فالطّفل الواثق من نفسه، يُحْسن تقدير ذاته. فما الذي يساعد المربّي على بثّ روح التقدير في نفوس الصغار؟

طريق ابنه في حالة تعثّره الدراسي. التّحفيز والتشجيع والحبّ والبحث عن مواطن الضّعف لتصحيحها، وعن الميولات لتعزيزها، والابتعاد عن التّصنيف والإقصاء والمقارنات والإهانات؛ سيبقي على نفسيّته متوازنة في كلّ الأحوال.

إشاعةُ المَرح والتّربية على حسّ الفكاهة كآلية للتأقلم والتكيف وتجاوز الأزمات وتحدّي العوائق، مثل ما قدْ يلاقونه من استهزاء من العالم الخارجي، وتوجيه حياتهم في مبْعَدٍ من التّهكمات بشكل يجعلهم لا يسْخطون على أنفسهم، ولا يستسلمون للاحتقار، وينمّي عندهم رضاهم الدّاخلي عن ذواتهم، وبالتالي صحتهم النفسية.

الإبْداع وسيلتُه لتحقيق ذاتِه

علّموهم الإبـداعَ والإتقان والابتعادَ عن النّمطية واتباع السّرب. الإبداع والتّجديد والابتكار يفجّر طاقاتهم، ويجعلهم دائمي الاستعداد للخلق.

النّجاح أيضًا مُعدٍ، فاتركوا عدوى تفوقكم تصيبهم.

يكْفي أن تفتحوا أمامَهم أبواب الإبداع، وأن تحدّدوا بدقّة أهدافكم وآليات تحقيقها، وأن تكون قناعتكم بما تودّون تمريره لهم بذلك الوَهَج الذي يجعلهم يقتنعون بكُم، وبما تقدّمونه.

حماسُكم يولّد حماسهم، وإيمانكم بنَجاعة ما تهيئونه لهم يبصمُ في قناعتهم، وجرأتكم على التّغيير والابتكار وخلق فرص حرّة لأنشطتهم = تساعدهم على العطاء والإبداع.

يحتاجون إلى التّشجيع، وإلى الحرية المنظَّمة، والفوضى الخلّاقة.

ويحْتاجون أكثرَ إلى مَن يرسم الطريق أمامهم بدقّة، ويترك لهم فرصة نصبِ السّكة واختراع القطار وتحديد محطّات رحلاتهم.

جنّبوهم السّخرية والازدراء، وقابلوا إبداعاتِهم بالتّشجيع. لا شيء يزرع ثقتَهم بأنفسهم مثل متابعة اهتماماتِهم الطفوليّة، وخربشاتهم البريئة بالتوجيه الفعّال، والتذنويه المتواصل البناء، والتّحفيز المشجّع على مواصلة العطاء والتّميز.

علّموهم الاستعانة بالمَوْلى، والصّبر والعزم وعلوّ الهمة واستقصاء الكَمال وعدمَ الرضا بالقليل، وبأنّ هذا ما يحتاجه مَن يروم الوصول.

الحماسُ مهمّ، والعزم على المواصلة أهمّ، ورفعُ سقف التطلّعات بالقدر الذي يحفّز على بلوغ المعالي يجب أن يضبط. فلا تحفّز زائدٌ يقطع طريق الوصول باتّهام النفس بالتقصير لعدم استطاعتها المواصلة، ولا تحميل النّفس ما لا تطيق، ولا خنوع واستكانة وقبول بمستوى زهيد.

عشْرُ خُطوات كي تقتلَ ثقتَه بنفسه وتقديرَه لذاته

الكلمات- كما سلف- رواءٌ للروح، أو خناجر تقتلُ على مَهَل.

إن كنت تودّ أنْ تقتلع جذورَ الثقة وتقديرَ الذات من أعماق ابنك بنجاح ويُسْر؛ فما عليك سوى أن تتّبع الخطوات السّهلة التالية:

١- قارنْه بإخوته أو بأصدقائه أو بأقاربه، وامْدحهم في مقابل ذمّه.

٢- أخبره كلّما أتيحت لك الفرصةَ بأنّه غبيّ بليد لا يفهم، ولا يستوعب.

٣- قلْ له كلّما بكى أو تألّم: «الطّفل الشّجاع لا يبكي ولا يتألم».

٤- حذّره وخوّفه كلّما أراد الاعتمادَ على نفسه واستكشاف العالم حوله: «ستسقط أو ستتأذّى إن لم تسمعْ كلامي، وإن لم تُردِ الإمساك بيدي».

٥- حينما يأكل بشراهة، قل له: «أنت تأكل أو تشرب مثل الوحش، أو مثل الخنْزير».

٦-إذا لم يُحْسن أن يرتدي ملابسه، أو إن كان غيرَ وسيم، قلْ له: «انظر إلى شكلِك القبيح في المرآة. ما هذه الملامح؟ وما هذه الملابس؟.

٧- كلّما أخطأ القولَ أو الفعل؛ أخبره: «أنتَ لا تتفوّه سوى بالحماقات، ولا تحْسِن عمل سوى «الجرائم».

٨- حينما يخطئ في عملٍ ما؛ استهزئ به واحْتقره وقُمْ بالعمل عنه، أو حوّله إلى إخوته قائلًا: «أنت لا تُحْسن فعلَ شيء، دعْني أو دعْ أخاك يفعل ذلك عنك».

٩- كلّما أخطأ أو أخفق في دراسته أو في عملٍ ما؛ قلْ له: «أنت لا تستحقّ منّي شيئًا».

١٠- كلّما أساء، ادعُ عليه في حنقٍ وغضب، وأخبره: «أنا أكرهُك وأتمنّى حتفك».

تهانينا لك؛ مهمّتك في تدميره ونسْفِ ثقته وتقديره لذاته؛ قد تمّت بنجاح.

صحّح مفاهيمَك

عنادُ طفلك، طريقتُه في إثبات وجودِه واستقلاليّته واستكشاف نفسه والعالم حوله.

خنوعُ الطّفل وخضوعه من غير أدْنى تمرّد أو معارضة، دلالة على هشاشته، وعلى قمعٍ من الوالدين، فإن لم يُخرج عنادَه بشكل طبيعي، ولم يُحْسن المربي تعامُلَه معه، خرج بأشكالٍ غير طبيعية، أهمّ مظاهرها التأتأة والتبوّل اللاإرادي والتّكسير والعنف، وغيرها.

طريقتُك المُثلى في استثمار تمرّده؛ ألّا تقابل عنادُه بعنادٍ أكبر، وألّا تقمعه بالضّرب والشّتم والصّراخ، وإنما بأن تتودّد إليه وتتقرّب منه وتحاوره، ثمّ توازنُ بين الاستجابة لطلبه وعدم الاستجابة بشكلٍ عقلي دون انهزام أمام رغباتِه، والمسارعة إلى القبول فقط لترتاح من موجةِ إلحاحه وتصلّده لرأيه. معاندتك له إمّا أن تخرج منه متمرّدًا، أو خانعًا ضعيفَ الشخصية.

خيالُ الطفل في سنواته الأولى أوسع مِن أن نحبسه في حكْمنا عليه بأنه كذب. مخياله يساعدُه على اختلاق القصص، وبناء عالم موازٍ يشبع من خلالِه حاجياته النفسيّة ومتطلباته غير المشْبعة كالثّقة والأمان والتقدير والعاطفة، وغيرها. ينسج حياته بالشّكل الذي يرغب فيه وليس كما هو عليه واقعه، فيحصل بذلك، في مخيّلته، على ما يريده وعلى ما يحتاج إليه. هي وسيلتُه كي يعبّر للعالم حوله أنّ أشياء تنقصه، وقد تكون، إن فطنَ المربي إلى مَراميه، طريقة لفهْم حاجياته ورغباته وما يودّ أن يفعله أو يمتلكه أو يكونه.

وقد يكون اختلاقُه القصص بدافعِ الخوف من العقوبة؛ مؤشرًا على أنّ مَن حوله يلاحقونه بالقلم الأحمر والعتاب والانتقاد، ممّا يولّد عنده التمرّد والحقد وحبّ الانتقام والخجل من النفس.

الكثيرُ من الإنصات الإيجابي، ومحاولة الغوْص في كلمات الطفل أبعد مِن منطوقه، وفهْم نفسيّته ومراميه من الكلام، ثمّ محاولة استنطاقه بطريقة ذكيّة وغير مباشرة انطلاقًا من فهْم المرامي كي يعبّر عن نفسه بأسلوب مُغاير، من غير انتقادٍ له ولا توبيخ ولا نصائحَ ولا اقتراح للحلول، فالغاية فقطّ حلّ شفرة الرّسالة الملغومة، والتحفيز على إعادة صياغتها بأسلوب جديد. وهذا سيستدعي مِن المربّي الكثيرَ من الصبر، ومِن وقته كي يستطيع فهْمَ مرامي الطفل الذي قد يلجأ إلى مزيدِ خيالٍ واختلاقٍ إنْ لم يشعر بالأمان، وتفهّم مشاعره وتقبّلها كما هي دون

تصحيحٍ لها، ولا تلقينه ما كان عليه أن يحسّ به، فهي على العموم مشاعرُ عابرة ستمرّ بسرعة إن وجدت الإنصاتَ والتفهّم وحسنَ الاستقبال، وأن يستطيع المربّي تغيير أفكاره ومواقفِه وتبنّي وجهة نظرِ الطّفل من أجل إعادة صياغة طريقته في التعامل وفي فهم الأشياء.

سلوكُه العدواني لا يعني- بالضرورة- أنّه شرير، وإنما هو يبعث بذلك رسالةً مشفّرة مَفادها أنه يعاني من شيء.

هُم يشعرون بكلّ ما يدور حولهم، ويفهمون الأحداث وفقَ تصوّرهم الطّفولي الصغير، لكنْ تعوزهم الكلمات لأجل شرْح موقفهم فيلجئون إلى أشْهَر وسيلة تستعمَلُ أمامهم، أو معهم، فيعبّرون بها عن مشاعرهم، مُسْتنجدين بالكِبار كي يفكّوا شفرتها ويسارعوا للعلاج. فإنْ كان العنف ما يثارُ حولهم، فإنّه سيصير وسيلتَهم المثلى للتعبير عن احتجاجهم وعن حاجياتهم.

عدمُ استجابتِه للأوامر لا يعني بالضّرورة أنّه «لا يسمع الكلام»، وإنما يعني أنّه ليس على ما يرام، وسلامتُه مهدّدة.

قد يكون ذلك بسبب:

- التعسّف في إصدار الأمر، أو السخرية أثناء إصداره.
- الخلفيّات والأحكام المُسْبقة من قبيل: (إن لم أصرخْ فلن يستجيب- إن لنتُ له فسيتعلّم الدّلال، وسيتعلّم ألّا يستجيب إلّا إذا تودّدت إليه- لا بدّ من الصّرامة فهي عنوان الحزم...) وغيرها من

الأحكام التي تجعل المربي يتعاملُ بندّيّة مع طفلٍ ليس له من الفهْم إلّا ما يأتيه مباشرة وبلين، وإلّا فإنه يفهم أنّه غيرُ مرغوبٍ فيه، وبأنّ تلك الأوامر انتقامٌ وتعسّف في حقّه.

– مُطالبته بما لا يُطيقه أو ما لا يسْتوعبه، أو ما يجد مشقّة في تقبّله.

– عدمُ إشباع حاجياته الجسدية والنفسية.

كثرةُ العتاب والتّضييق والمتابعة بالقلم الأحمر تعلّم الطفل الكذبَ والعناد.

اتْركوا لهم مساحةً شخصية يمارسون فيها طفولتَهم وشغبهم، وراقبوا المشهدَ من بعيد، واسْتمتعوا بهذا الشغب.. ولا تتدخّلوا إلّا حينما يستدعي ذلك تدخّلكم.. التّوجيه إنما يكون بالحوار، وبجَعْلهم يعلمون أين خطؤهم. في الغالب هُم لا يفْهمون صراخَكم وعتابكم، ويعتبرون ذلك مبالغةً منكم وقسوة وعنفًا، ولا يتعلّمون من أخطائهم مادمتم لم تقرّوهم بها، ولم يتعرّفوا عليها، ويعترفوا بها.

أذنُ المُحبّ حلٌّ لأعْصى المشكلات

جلسةٌ شفيفة كفيلةٌ بترميم ما يعْسر ترميمُه في غياب التواصل وانعدام الحوار.

جلسةُ مكاشفةٍ ومودّة وقرب، تتبادلان فيها تحديدَ المشاكل ومباحثة الحلول وتوضيح الأشياء التي- مِن كثرة انشغالاتنا وقلّة تواصلنا- نظنّ أنّه من المُسلَّم أن تكون عندَهم من الواضحات، في حين تغيبُ عن أذهانهم الصّغيرة مجموعةُ تفاصيل هي الكفيلة بحلّ الإشكال عندهم، وهي الكفيلة بفكّ النّزاع المفْتعل في صُدورهم بسببِ عدم فهْمهم لنا، وعدم تكليف أنفسنا فرصةَ فهْمهم وفرصة الشّرح والتوضيح.

في مبعدٍ عن التّوبيخ وعن العتاب وعن العقاب لأجل صراحتهم، وبضبط بوْصلة تدخّلاتهم الصّريحة كي لا تحيدَ عن طريق الأدب والاحترام الذي لا يتنافى مع الصراحة.

نقبلُ منْهم كي يقبلوا منّا، ونسعى إلى إيجادِ حلول لا تخطئها أحيانًا كثيرة عقولهم. هكذا نشيّد جسورَ تواصلٍ معهم، ونمتلك ثقتهم،

ونكسب حلفاء جُددًا لمواجَهة المشاكل من نفْس الضّفة قُبالة عوارض العثرات.

التّواصل الجيّد والدّائم؛ يؤدّي إلى هدم الحواجز، وإلى خلق علاقةٍ مبنيّة على الصّداقة والقرب أكثرَ ممّا هي علاقة أبوّة أو أمومة أو أستاذية.

إنْ كان سوقُ العمل يرتكزُ على قواعد التّواصل لأجل علاقات مبنيّة على التّفاهم وعلى الاحترام، فلعلّ البيت أوْلى بها، سواء بين الأزواج أو مع الأطفال أو بحجرة الدرس.

لأجْلِ إنْصاتٍ ناجِع

١- عالَمُه الطّفولي عالَمٌ حقيقيّ، وله قيمةٌ قصْوى عنده، واهتماماتُه الطفولية لا تقلّ أهميّة في الواقع عن اهتماماتِ الكبار بمَعالي الأشياء. التّعامل معه على أنّه تفاهات لا تستحقّ الالتفات أو إعطاءها أهميّة؛ يفقد الطفلَ قيمة الأشياء حوله، وتشعرُه بأنّه لا قيمة له مادام عالَمُه غيرَ مُعترف به. اعترافُك بعالمه.. اعترافٌ ضمنيّ بوجوده.

٢- المشاركةُ الوجدانية للطفل في فرحِه الطفولي أو ألَمِه البريء؛ تقربك منه، وتجعله يثقّ في قرْبك أكثر، ويُشْعره بالحبّ والأمان، ويبعد عنه الخوفَ من تحسّس العالم.

فرحُه بالعثور على لُعْبته أو ترميمها شيء يبدو لك تافهًا، لكنّها تقريبًا كلّ عالمِه، وفقده لها أو حزنه لتكسرها يعني له فقدَ جزءٍ من عالمه. ارتباطه الوجْداني بها لا يقلّ عن ارتباطك الوجداني بعَمَلك أو مشاريعك أو سيارتك أو مالِك أو بأحدِ أفراد العائلة. وهو نفسُ فرحِه وهو يحدّثك عن أصدقائه وعن إنْجازاته، أو عنْ شخصياتٍ أفْرَحته في

قصّةٍ قرأها. ينتظر منك أن تفرحَ لفرَحِه، وأن تشاركه أحاسيسَه، وأنْ تثمّنها دون تعليقٍ سلبي أو توْجيه.

وبالمقابل، خصامُه مع أصدقائه وتخلّيهم عنه لحظة تشنّج، أو شعوره بالوحْدة بسبب تغْيير سكنٍ أو مدرسة، أو افتقاده لأحدِ أفراد العائلة كأخ مُسافر أو جدّة بعيدة أو غير ذلك، يحتاج منك حينها أن تواسيه، وأن تربتَ على قلبِه الصغير، وأنْ تفتح أمامه أبوابَ رجاءٍ وأمل بتصْبير يليق بسنّه، دون وعودٍ كاذبة، أو قمع، أو تسفيه لما يشعُر به.

موتُ كتكوتِه أوعصفوره، أو قطّه.. قد يشكّل له خوفًا دفينًا يصعب عليه تفهّمه.. يحتاج إلى تفسيرٍ يناسب عقله الصغير، (سيأتي الحديث عنه لاحقًا)، وإلى احْتواءٍ واحتضان قبل ذلك، ومواساة وحديث شفيفٍ كي يعبّر عن شعوره. ولك في ذلك أسوةٌ بنبيّك- عليه أفضل الصلاة والتسليم- في حديث النّغير؛ روى البخاري- رحمه الله- في الصحيحِ عن أنس، رضي الله تعالى عنه، قال: (كان الرسول- صلى الله عليه وسلم- يزورونا، وكان لي أخٌ صغير، يُقال له أبو عمير، وكان له طائرٌ صغير، يلعب به فقال الرّسول، صلى الله عليه وسلم: يا أبا عُمَير، ما فعل النُّغَير؟ فقال: مات يا رسول الله).. وفي رواية: أنّه رأى أخي حزينًا فسأله ومسحَ على رأسه.

لهذه المسْحَة على الرأس وعلى الفؤاد يحتاجُ ابنُك، طفلًا كان أو يافعًا، كي تجعلَه يتحسّس العالم في ثقة وأمان.

٣- اتركْ له فرصةَ الحديث والتّعبير مهْما أطال، وأبْدِ اهْتمامك وتفاعلك مع كلّ ما يقوله دون أحكام أوتعليق أو تصحيح أو توْبيخ. شجّعه على إكمال كلامِه، وتذكّر بأنّ الطّفل حينما يتحدّث لا ينتظر التعليقات، وإنّما يحب أن يكون مسْموعًا. فإنْ تكرّر التّوبيخ أو الانشغال عنه أو زجره عن الحديث؛ سينتهي في الأخير منطويًا على نفسه مُحْجمًا عن الحديث إليك.

٤- أشْعِره بأنّ كلامه مفهوم، ولا تُكْثر عليه الأسئلة ظنًّا منْك أنك بذلك تشاركُه حديثه، فكثرةُ الأسئلة تُشْعره بأنّه غير مفهوم. عوضًا عن ذلك، تستطيعُ إعادة صياغة كلامِه بعبارات أخرى كي تثبت له أنّك فعلًا فهمتَه.

٥- لا تقمَعْ فيه الإحساس، ولا تخبرْه أبدًا بأنّ إحساسه غيرَ صحيح، أو لا ينبغي. أكبرُ خطأ يقع فيه الآباء خاصّة مع الطفل الذّكر، منعه من البكاء واعتبار ذلك نقصًا فيه. ساعدْه على التعرّف على أحاسيسه، واستعملْ لأجل ذلك الكلماتِ الأكثرَ تلاؤمًا مع حالته ومع شعوره. ثراء المفردات المعبّرة عن حاله؛ تدّربه على تحليل ما يَشْعر به بدقّة، وبالتّالي تشخيص المُشْكل.

٦- أهمّ خطوةٍ بعد الاستماع، وبعد المشاركة الوجدانية، وتقبّل مشاعره؛ خطوةُ البحث عن الحلّ. مِن السّهل على الآباء إيجادُها وتلقينُها للطفل، لكن الذي سيساعد الطفلَ على النّمو؛ بحثُه بنفسِه

عنه.. والاكتفاءُ بتوجيهه من غيْر فرض أو تقديم للحلول الجاهزة، وذلك عن طريق طرْح بعض الأسئلة المُساعدة: (ماذا تنوي أن تفعلَ حيالَ هذا؟ وما الحلّ في نظرك؟ وماذا إن لم يكنْ ناجعًا؟ وهل فكّرت في الآخرين وأنت تبحثُ عن الحلّ؟).

٧- إشراكُ الطّفل أو اليافع في إيجاد حلولٍ للمشاكل؛ طريقة مثلى لخلق قنطرات الوصل والتّقارب بين الطّرفين، ووسيلة لتربيته على الثقة بالنفس وعلى المسئولية، وعلى الاعْتراف بالخطأ والبحثِ عن ترميمه.

«الرّبح للجميع» أو «رابح، رابح»

وسيلةٌ من الوسائل النّاجعة في الحثّ على التّقارب، وعلى تقبّل الحلول. المُشْكل في الغالب يقبلُ مجموعةَ حلول ترضي كلّ الأطراف، فعلام حصْرُها في واحدٍ مفروض من المربي مرفوض من المتعلّم؟ وعلام التّعنتُ للرّأي إن كانت هناك فعلًا إمكانية قبول الحلول المقترحة من أوْلادنا؟

الاجتماعُ على مُباحثة الحلول؛ يفتحُ مساحات قد يكون الطّرفان في غفلةٍ عنها، ويحفّز الطّفل على التفكير، وعلى تبنّي أسلوب الإقناع، وعلى الإبداع، ومِن ثمّ تطبيق ما تمّ الاتّفاق عليه لأنّه قد ساهم بفاعلية في ذلك، واقْتنع به، واتّفق عليه، فيُشْعره ذلك بأنّه ناضج وقادرٌ على الانخراط، ليس فقطْ في حلّ المُشْكل المطْروح، وإنّما في تطوير العلاقة بينه وبين المربي، والرّقي بها لأجل تجاوز أسبابِ الصّراعات، وأيضًا في

اكتساب الثقة بنفسه.

٨- مباحثةُ الحلول تحتاج إلى وعيٍ كبير من المربي، وإلى منطقية وعقلانية في اختيارها.

جلسةُ نقاشٍ يحدّد فيها الطرفان أساسَ المُشكل، ويتّفقان على تحديد مسئولية كلّ طرفٍ في إذكائه، ومن ثمّ المرور إلى اقتراح الحلول الممكنة وفرْزها حسبَ نجاعتها وإمكانية تطبيقها في الواقع، خلوصًا إلى حلّ أو مجموعةِ حلول تُرْضي الجميع، ووسائل تطبيقها كقرارٍ اتّفق عليه الطّرفان.

وتبقى أهمّ خطوة بعدَ كلّ هذا وأخطرُها؛ المتابعة والحرص، من جهة، على تطبيق القرارات دون تقصيرٍ من المربّي في التطبيق، أو سماح بتجاوزِ الطّفل لها، ومن جهةٍ أخرى التيقّظ لصلاحية نجاعتها، فقد تكون صالحةً لمرحلة دون مرحلة، أو قدْ يجدّ من الأحداث ما يستدعي اجتماعًا مجدّدًا لأجل مباحثة جديد حلول.

٩- تصحيحُ السّلوك دون تصحيح المفاهيم سيؤدّي إلى التعديل، لكن تعديلًا آنيًّا متأثرًا إمّا بالحماسة، أو بالتشبّه بالأخيار، أو بالتنافس في الخير وغيرها، لكنّ المفهوم إنْ صُحّح؛ رسّخ وصار قناعة وأدّى إلى النهج السّليم، وحتى إن أخفقَ المخاطَب؛ فإنّ المفهومَ سيبقى مرجعًا ومنارةَ هاديةٍ له.

كيف نُمارس سلطتَنا على الأطفال، آباءً ومربّين، بشكلٍ ناجِع وغير متعسّف؟

كيف نضعُ للطّفل حدودًا دون قمْعه؟

١- حاجياتُ الطّفل الأساسية، كما سلف، لا تنحصر في تلبية متطلباته الجسدية من مأكل ومشرب وتنظيف وتطْبيب؛ وإنما تتعدّاها إلى حاجيات نفسية. الاهتمام والتّواصل الجسدي والوقت المخصّص لصحبته واللعب معه والاستماع إليه؛ من أهمّ ما يجبُ أن يوليه المربّي اهتمامَه. صراخُه وشغبُه حينما يغفل عنه المربّي؛ إشعارٌ له بأنه يرغب في إشباع حاجة من حاجياته المفْتقدة خلال تلك اللّحظة؛ وهي الاستماعُ والتواصل والاستمتاع بذلك الوقت في صحْبته. وهنا يحدثُ التّعارض بين رغبة المربي في الانشغال، ورغبة الطفل في تفرّغ والديه له. هو في حاجةٍ دائمة للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه، وفي تفريغ إحباطاتِه الصغيرة، وإشراك الكبار ممّن يثقُ فيهم انتصاراته وإخفاقاته. الحلّ الأمثل، خاصّة حينما تكون محاولاتُه لإثارة اهتمامِ الكبار مصحوبةً

ببكاء وحزن، التفرّغ إليه فورًا ومحاولة الإنْصات إلى أوجاعه. قد يكون خائفًا أو منزعجًا، وهنا يكمن دورُ المربّي في طمأنته وحضنِه. في حالات أقلّ حدّة، يستطيع المربي أن يطلبَ منه- في كلّ هدوء- أنْ ينتظر قليلًا إلى أنْ ينهي ما بيدِه كي يكون له كليّةً. الصّراخُ في وجهه ونهْره، وربّما تعنيفه لن يحلّ المُشكل، بل سيضاعفُ من حنقه وغضبه وبكائه. في حالات الصّفاء، ندرّب الطفل على أن يحترمَ انشغالَ المربّي: «حينما أكون في حديثٍ على الهاتف، عليك أن تنتظرَ قليلًا حتى أنهي المكالمة، وألّا تقاطعني.» هذه العبارة ومثيلاتُها تخلقُ تواصلًا فعّالًا مع الطفل، وتعلّمه الصبر، وتذكّره بأنه ليس مركز الكون، ولا يفترض أن يهبّ الجميع لأجل رغبةٍ من رغباته. قربُ المربّي من طفله يساعدُه على معرفة متى يكون إلحاحُ طفله ضرورة، ومتى يكون دلالًا، ومتى يكون مجرّد إثارةٍ للأنظار وحثّ على الاهتمام. والمربي الواعي يحْسِن التصرّف إزاء كلّ موقفٍ من غير إفراطٍ ولا تفريط.

٢- محاولةُ ترتيب البيت بشكلٍ يجعل الطفل في مبْعدٍ عن الأخطار، بحيث نجعل له مساحةً كافية لاستكشافاته وحريّته في التفتّح على العالم حوله. جميلٌ أن ندرّبه على احترام خصوصيّات الآخرين منذ الصغر، ولكن الأفضلَ أن نجنّبه كلّ الأدوات التي نعلم يقينًا أنّها خطيرة وأنّه سيمسّها، فلا نمضي وقتنا في النّهي والزجر والمتابعة اللصيقة التي تقمع حريته.

٣- خلقُ فضاءٍ خاصّ به منذ السّنة الأولى حسب الإمكانيات: غرفة خاصّة، فراش خاص، فضاءٌ للألعاب والكتب، وتعليمه الحفاظ على مُمْتلكاته وعلى نظافة عالمه، من جهةٍ لينشأ على تحمّل المسئولية، ومن جهة كي يعتادَ على الحدود الجغرافية واحترامها باحترام الكبار مساحته الشّخصية. حينما نستأذنه في الدّخول إلى غرفته، فإننا بذلك نعلّمه الاسْتئذان، وحينما نحترم خصوصيّته فإنّنا نكون بصددِ تعليمه احترام خصوصيّة الآخر.

٤- تقديمُ الأوامر بشكلٍ مباشر عوضَ دعوته إلى أن يفهَمَ مغزى الكلام: «كلْ بيمينك» عوض «النّاس لا يأكلون عادةً باليسار»، «تحدّث بصوت منْخفض» عوضَ «ممنوع الحديثُ بصوت عال»..

٥- أنصتْ إليه قبل أن تعارضه أو تصدرَ أوامرك. الطّفل الذي لا يريد أن يمتَثِل يحتاج إلى أن ننْصِت إليه عوضَ أن نطالبه بالاستماع لأوامرنا. مهْما كان موقفنا ممّا يودّ فعلَه، نرْعه أسْماعنا قليلًا ونتركه يعبّر عمّا يودّ القيامَ به، فنكسبُ بذلك ثقته فيما سنقترحُه عليه. «ماذا تريد أن تفعل بهذا المقصّ؟» «ماذا ستفعل بهذا الكرسي في هذا المكان؟» « هذه كراسة أختك، ماذا تريد أن تفعل بها؟» ننصتُ إلى تفسيره، ونبدي له اهتمامنا وفهمَنا لما يقوله، بل نعيدُ على سمعه ما فهِمْناه من أقواله: «تريد أن تقصّ ورقة» «تريد أن تصعد على الكرسي لتصل إلى مكتب أخيك» «تريد أن تكتب في الكرّاسة»، فيشعر الطفلُ بذلك بأنّه مفهوم

ومعترضفٌ بنواياه، ممّا يؤدّي به إلى عدم التشنّج لموقفه إذا ما أحسَنّا توجيهَ طاقته ورغابته إلى اختيارات أخرى أسلم وأفضلَ له.

٦- خلقُ البدائل: حينما نمنعه- مثلًا- من العبث بكرّاسات إخوته، يفترض أن نمنحه كراسات خاصّة به، وحينما نمنعه من استعمال المقصّ وحده، يفترض أن نخصّص له وقتًا لممارسة القصّ في صحبته، وحينما نمنعه من أواني المطبخ التي تشكّل خطرًا عليه، فلا بأس أن نخصّص له بعضًا منها ممّا لا يخشى عليه منه، ونتركه يستكشف ويلهو كما يحلو له.

٧- دعوتُه إلى ترميم ما أفسدَه في حالة تعدّيه على حقّ مَن حوله حسب سنّه وقدرته؛ تعلّمه تحمّل نتائج أخطائه، وتزجره بطريقة غير مباشرة عن تكْرار الخطأ لما يعلمه من اضطرارٍ إلى إصلاحه.

٨- إشراكُه في اتّخاذ بعض القرارات الصغيرة التي تخصّه، والتي تلائم عمرَه، أو في اختيار طرقِ إصْلاح ما أفسده، بل حتى في الوسائل التّأديبية؛ تكرّس حريته، وتعوّده على الاختيار، وتعزّز فيه حسّ الانتماء.

٩- السّماحُ له بالتّجريب كي يتأكّد بنفسه من نجاعة الأوامر أو المنْهيّات ما لم يمثّل ذلك خطرًا عليه. لا يريدُ أن يأكل، نتركُه إلى أن يجوع فيطلب بنفسِه الطعام. لا يريد أن يلبس معطفه، نتركه إلى أن يشعر بالبرد فيطلب بنفسه أن يُدثّر. لا يريد أن ينام، نطلب منه أن يبقى في فراشه وألّا يزعج إخوتَه النائمين، وأن يقرأ مثلًا قصّة أو يتفرّج على صفحات مجلّة إلى أن ينام. ساعته البيولوجيّة قد تختلف عن ساعاتِ مَن

حوله، وناقوس جسده سيجعله يمتثل لأوامره.

١٠- مشاركتُه استكشافاته وتجاربه، وتحْفيزه على الامتثال للأوامر. أحيانًا، هو لم يفهم المطلوب، ورفضه يكون غالبًا ناتجًا عن عدم معرفته كيف يطبق؛ وليس عن عناد. ومشاركته تفتح أمامَه فرصةً ليس فقط لتعليمه المطلوبات، وإنّما لتثمين حركاته، وتشجيعه على الجيد منها، ومساعدته على تصحيح خطئه.

١١- التّذكيرُ باستمرار، مِن غير إطْناب ولا صراخ، بالقواعد التي تمّ شرحُها من قبل مِن طَرَف الوالدين. ومضاتٌ للتنبيه وللحثّ على الامتثال تفي بالمراد: «صلاتك» «كتبك» «النوم» «أسنانك». هُم يكرهون الخطب العصْماء، والأوامر المسْهبَة والشّروحات الطويلة المتكرّرة. الكلمات المقْتَضبة مجتمعةً بنبرةِ صوتٍ حازمة وغير غاضبة في نفس الوقت تؤدّي المراد.

١٢- ليكنِ الأمرُ المراد إلزامه به واضحًا منطقيًّا غير متناقض. إنِ اسْتشعر الطّفل تناقض والديه في الأمر، أو اكتشف أنّك تأمره مرّة بالفعل ومرّة بنقيضه، أو أنّك غيرُ حازم معه؛ فمرّة تعاقبه على الفعل، ومرّة تغمضُ عينيك، ومرّة قد تشاركه فيه، رفض الامتثال واكتسب العناد من ذلك، ولربما احتجّ عليك بهذا التناقض.

١٣- إذا أردتَ أن تطاع؛ فائْمُرْ بما هو مُستطاع.

كثرةُ الأوامر وتشعّبها، والأمرُ بما لا يطيقه؛ سيجعله يرفض

الامتثال. سلطاتُنا كمربّين لا تقتضي أن نحمّلهم ما لا طاقة لهم به، ولا أن نلزمهم بما نريده منهم تحقيقًا لرغباتنا الأبوية المتسلطة.

١٤- لا يعقل أن نعوّده على الخطأ، ثمّ بين عشيّة وضحاها، نطالبه بأن يستقيم، وأنْ يمتثل.

أكبرُ خطأ يرتكبُه الآباء في تربية أوْلادهم؛ أنّهم ينتظرون أن يبلغوا سنّ العاشرة، أو أقلّ قليلًا كي يبدؤوا في فرض سلسلةِ محرّماتهم وخطوطهم الحمْراء. يتزامنُ ذلك مع تهيئ الطفل لمرحلة المراهقة وظهور بعض أماراتها على شخصيّته وتصرّفاته، فتبدأ سلسلةُ التمرّد من جهة الطفل، والتسلّط من جهة المربّي. التّربية تبدأ من الشّهور الأولى، فكما نحرص على ألّا نترك المراهق يكسِرُ ويصرُخ ويُعْلي صوته على مَن حوله، كان من الواجب ألّا نتركه، وهو رضيع، يعضّ مَن حوله، أو يعتدي عليهم بجرّ شعْرٍ أو خمْش، وألّا نسمح له بتكسير لعبه حالة غضب.

التربيةُ جزءٌ لا يتجزّأ، وهي متسَلْسلة في كلّ مراحلها. أيّ خلل فيها قد يقع في بداية حياة الطفل؛ تمتدّ ويلاتُه إلى مراحل بعدها، وقد تبصم بشكل خطير في شخصيّته إلى أنْ يصبح يافعًا؛ بل رجلًا.

١٥- ألّا يخالف فعلي أمري.

لا يُعْقل أن نأمرَه بعدم تأخير الصّلاة ونحن نفعل، أو ننهاه عن الكذب وهو قد وقفَ بنفسه على كذبنا عليه، أو على غيره.

١٦- الحرصُ على عدم فقدان الوقار مع الطّفل مهْما بلغت درجة

الصداقة والقرب منه حتى يثقَ في كلامنا وتوجيهاتنا.

١٧- ملاءمة الإجراءات المتّخذة تجاه سلوكٍ معيّن؛ للسّلوك نفسه، فلا تهويل ولا تهوين، وإنما يفترض أن تكون العقوبة وردّة الفعل على قدْرِ الخطأ.

١٨- المدحُ والدّعم المباشر للسلوكيات الحسنة وعدم الاقتصار على الذّم والانتقاد.

١٩- التّوجيه والتحذيرُ الاسْتباقي يمنع الكثيرَ من السلوكيات الخاطئة، لكن من غيْر مبالغة ولا تهويل ولا إرجاف، فالطفلُ يحتاج إلى الأمان وليس إلى التخويف.

٢٠- الخطأ لا يمنع المعاملةَ بالحبّ والاحترام وتعزيز الشّعور بالانتماء. إلزامُه بالقواعد من غير تنقيصٍ ولا تجريح ولا ازدراء يساعدُه على الامتثال.

إنّ استيعابَ التّوازن بين رقابة المربي واستقلاليّة الطفل أو اليافع، وبين النّظام والحرية؛ تعزّز ثقتَه بنفسه وشعوره بالانتماء، وتربّيه على المسئوليّة الفردية وتنظّم علاقاته الشخصية، وتخوّل له صحّة نفسية جيدة ونموًّا سليمًا؛ بل وتهيّئه استباقيًّا لاتّخاذ القرارات السليمة مستقبلًا، وللاعْتماد في ذلك على مناقشةِ الخيارات، وأجرأة القواعد وطرح البدائل والتفكير في النتائج.

كيف نربّيهم على الصّراحة، وعلى أنْ نكون مأمَنَ أسرارهم؟

بالحبّ.. وبمصاحبتِهم منذ طفولتهم، وبالاستمتاع والمشاركة.

- حينما يتشارك المربّي أطفالَه ألعابَهم واهتماماتِهم الطفولية، ويردّ على أسئلتهم الفضولية بشكلٍ يظهر إعجابَه واحترامَه لما يطرحونه دون صدٍّ أو استهزاء أو تنْقيص، ودونَ أن يجعلها فرصتَه للانقضاض عليهم بسبب خطأ في التّصرّفات أو المروي، ودون أن يفرغَ فيهم حزنُه أو تعبُه صراخًا وزعيقًا وتأنيبًا.

- حينما يقرأ لهم قصصَ قبل النوم ويسألهم عمّا فهموه من القصة في سعة خاطرٍ وصبر، ويظهر لهم إعجابه برأيهم أو يوضّح لهم في هدوء دون انْتقاصهم.

- حينما يسألهم عمّا دار في الحضانة وبعدها في المدرسة، وينصتُ لهم باهْتمام وهُم يرْوون له التّفاصيل المملّة دون أن يضجر أو يسأم.

حينما يأخذ رأيَهم في بعض القرارات: (ملابس، ألعاب، طعام، سفر...)

بهذا.. وبغيره كثير، يكون المربّي في حالة تكوين لصداقةٍ عميقة مع أطفاله، ولإعدادهم كي يتحدّثوا إليه فيما بعدُ بكلّ أريحيّة وصراحة، ودون خوف.

– بإعطاء المثلِ في الحديث والتصرّفات والتعاملات. الاعتذار عن الخطأ يعلّمهم الاعتذار، وشكرهم يعلّمهم الشكرَ والامتنان، ويهدم الفجوةَ بينهما، ويشجّع على خلق علاقةٍ متينة مبنيّة على الحبّ والاحترام والتقدير.

– احترام الوعود والمواعيد.

– الاهتمامُ باهتماماتِهم ومشاركتهم هواياتِهم، ودعوتهم إلى الاهتمام باهتماماتنا حسب سنّهم، وإشراكهم في هواياتنا.

– تقديرهم واحترامهم وتشجيعُ الثّقة بنا وبأنفسهم.

– مساعدتُهم في حلّ المشاكل، وتجاوز الأخطاء والقيام بواجباتهم بشكل متّزن، وحسب الحاجة.

– إشراكُهم في بعض الأشغال اليوميّة: تسوّق، عمل مطبخي، طلاء جدران...

– الإسرارُ إليهم بشيء، والاعتماد عليهم في عدم إفشائه.

– عدمُ إفشاء أسرارهم، والاحتفاظ بكلامهم الذي يفضّلون أن يبقى خاصًّا بيننا وبينهم.

– التّواصل المستمرّ، والإنْصات الإيجابي الواعي، وعبارات الحبّ والتّقدير تجعل العلاقة بين الطرفين مثالية.

بصوتٍ واحد.. بقلبٍ واحد..

تمزّق عُرى الوالدين أمام الأطفال أثناء التّوجيه والتلقين؛ يؤدّي إلى بعْثَرة الأطفال.

الطفلُ يحتاجُ إلى أن يسمع النّصيحة من والديه بصوتٍ واحد، لا بصوتين مخْتلفين، ومعنيَيْن متناقضين، ممّا يؤدّي إلى فقده الثقة فيهما معًا، أو تفضيل أحدِهما على الآخر، باعتبار أنّه مَن يوافق رغباتِه وهواه. الأمّ (أو الأب) التي تصادم زوجَها خلال التّوجيه، وتراجعه في النصائح، وتفنّد أقوالَه أمام أبنائها؛ تصنع جيلًا لا يحترمُها هي بالدّرجة الأولى، وتهتزّ ثقته بوالده. رغم كلّ ما يمكن أن يحدث من اختلافات وخلافات بين الوالدين، فمكانُ تصحيحها ليس أمامَ الأبناء، ووقتها ليس حينَ توجيههم وتربيتهم. مهْما حدث من انشقاقات، فلا بدّ من درجة عالية من الوعي- لصالح الأولاد- والابتعاد عن تراشق الاتّهامات، وتصحيح أخطاء الشريك في التّوجيه أمامهم. فإمّا الاتّفاق المسبَق على خطّة عمل، وبرنامج توجيه محْكَم، كي يكون الشّريكان في نفس الضّفة أمام المشكلة، أو على الأقلّ، تأجيل الحوار والمناقشة ورَدّ أقوال الشريك إلى حين الانفراد.

إهانةُ الرجل لزوجته أمام أولاده (قسْ على هذا عدمُ احترام الزوجة لزوْجها أمام الأولاد)؛ يؤدّي إلى اضطرابات في شخصياتهم، ويعلّمهم سوءَ الأدب والجرأة والتمرّد عليها، وعدم احترامها، وبالتالي عدم تقبّل نصائحها وإرشاداتها، بل تعلّمهم كرهه والحقدَ عليه، وسوء الأدب معه أيضًا. ينعكس الأمرُ أيضًا على سلوكياتهم العدوانية مع رفاقهم وإخوتهم.

إنْ كان مِن توجيهٍ لها، أو حسابات شخصية، فليس أمام الأبناء، وليس بالتّعنيف والتّجريح والإهانات، فإن ذلك لا يُثْمر سوى تدميرِ نفسيّتها، وتعليمها العناد والحقد، وتدمير الأطفال.

في حوارك معه، طفلًا كان أو يافعًا، تأكّد من أن عباراتك المستعملة، ونصائحَك الموجّهة؛ لها معنى يستوعبُه ولا يتجاوز مقدرتَه على الفهم، محدّدة غير عائمة، واضحة غير حمّالة وجوه فتُرْبكه وتجعله ربّما ينفذ خطأ توجيهاتك بسبب غموض خطابك أو ازدواجيّته. لا بأس أن تتحقّق من وصول خطابك له بطرحِ بعض الأسئلة كي تخضع فهمَه إلى مرادك. فكم من أمرٍ انتظرت أن يطبّقه، فأرجعت عدمَ امتثاله إلى عناد أو تمرّد، في حين أنّ المشكلة في شكل الخطاب ونجاعتِه.

الأوامرُ غير المباشرة مهمّة جدًّا، لكنْ لا بدّ من التأكّد من أنها وصلت.

التّمويه، أو التّوضيح، أو التّكييف، أو التّجاهل والقمعُ في الردّ على أسئلتهم؟

نَهَمُ الأطفالِ المعرفيّ، وفضولهم المُتنامي؛ يضعُ المربي أمام أسئلتهم التي لا تنتهي. يحاولون استكشافَ العالم، وإعادة صياغته تبعًا لأسئلتهم وأجوبة مَن حوْلهم عليها، وهنا يكمنُ دورُ المسئول في التّوجيه وإشباع الفضول والإقناع. أشياء قلّ مَن يُتقنُها من الآباء والمربّين، إمّا لجهلٍ بالجواب، أو لأنّ الردّ يقْتضي الدّخول في موضوعات يصعُبُ شرحُها، أو للانصهار في دوّامة الحياة فلا وقتَ للخوْض فيما يعتبرونه تافهًا لا يستحقّ عناية، غافلين عن أنّ المرور قربَ هذه الأسئلة دون ردّ، ستجعل الطفلَ يكرّر سؤالَه، أو سيجعله يبحثُ عن الجواب عند مَن حوله، وقد يتلقّى أجوبة وردودًا قد تكونُ من الخطأ بما يجعل ذلك يبصمُ في حياته وطريقة

تفكيره. لِمَ السّماء زرقاء؟ وأين يذهب النورُ حينما نطفئ المصابيح؟ أين الله؟ وكيفَ هو؟ ولماذا لا نَراه؟ وهل إذا اختبأت داخل اللّحاف أو تحت السرير أو في مكانٍ مُظلم سيراني؟ أين اختفتْ جدّتي؟ ماذا يعني ماتت؟ ما الموت؟ ولِمَ والدي لا يعيش معَنا؟ (في حالة طلاق مثلًا) لماذا انفصلتما؟ هل بسبب وجودي؟ كيف ولدت؟ ولماذا عليّ النوم؟.

ثلّةٌ من مئات أسئلةٍ سواء منها الوجودي اللاهوتي، أو ما يخصّ الظّواهر الطّبيعية التي يستكشفُها، أو ما يخصّ مشاعره والعلاقات التي تربطه بمَن حوْله. شلالٌ لا ينضب، يحاول مِن خلاله أن يبحث عن موْقعه ودوره في هذا الكوْن الفسيح، فإنْ جفّ فجأة؛ فليس له مِن تحليل سوى أنّه مقْموع، ولا يجد الردّ الذي يبحث عنه ويشبع نهمَه المعرفي.

فما الذي على المربّي أن يفعله أمام هذه الأسئلة وغيرها؟ وكيف يتعامل مع الـ «كيف؟» والـ «لماذا؟» ومع الأسئلة المحْرجة، أو التي تستدعي دقّة علميّة في الردّ؟

السّؤال؛ وسيلةٌ لمنْح الثّقة واكتسابها

أسئلةُ الأطفال، إلى جانبِ أنّها تبحثُ عن تحْقيق رغبتهم في المعرفة، هي وسيلتُهم في الثّقة فيمَن حولهم واكتساب الثّقة منهم، فالسؤال وسيلةُ تواصل، ومناسبةٌ جيّدة للتقارب مع المربّي، بل عربون محبّة، فهي التي تساعدُهم على النموّ والاستكشاف، وهي مِن بين مقاييسهم في معرفة درجة حبّ واحترام المربّي لهم، وطريقتهم لإبراز ذاتِهم، وإقناع مَن حولهم بأن وجودَهم لا يقلّ أهمّية عن الكبار؛ لذلك كانَ من الواجب على المربّي أن يُعيرَها اهتمامه، وأن يتعاملَ معها بذكاء وحنْكة، وأن يجعلها وسيلتَه لربط أواصرِ المحبّة والاحترام مع الطفل.

«لماذا؟»: بحثٌ عن الأمان، أو هدم للخطوط الحمراء؟

بعضُ الآباء يلجئون إلى القمْع والإسكات بالزّجر والتذمّر من كثرة الأسئلة، بل منهم مَن ينعتُ الطّفل بالغباء أو الثرثرة، ويقمع فيه حبّه المعْرفي. ومنهم مَن يكون ردّه على الدّوام: «الأمور هكذا»، وهي طريقة غيرُ مباشرة لقتل الفضول وترْكِ الطفل في حيرة.

في بدايةِ الأمر، تبدأ الأسئلةُ بأساسيّات الحياة، وبتكرار «لماذا؟»، ثمّ ينتقل إلى الاسْتفسار عن العلاقات المجتمعيّة، خاصّة بعد خصامٍ

مع صديق، أو انتقالٍ من حيّ أو مدرسة، فيفتقدُ ويشتاق ويتألّم للفراق والتغيير، ويحزن لكوْن صديقه قد استغنى عنْه بصداقاتٍ جديدة. مشاعرُه متقلّبة، وحزنه حقيقي، وأسئلتُه تبحث عن شفاءٍ لما يجده، وعنِ الأمان. ولا وسيلة للوصول إلى ذلك إلّا بالأجوبة الشّافية، والردود الكافية التي تؤمّنه، وتجعله يستردّ الثّقة في العالم حوله، وتمدّه بالوسائل التي تمكّنه من فهم الحياة. تلي هذه المرحلة- وربّما متزامنة معها- الأسئلةُ المتمرّدة على السّلطة الأبوية، الرّافضة للأوامر والتوجيهات:

لماذا عليّ شرب الحليب وأكل الخضر؟

لماذا عليّ أن أنام؟

لماذا سألبس المعطف؟

في محاولاتِه المتكرّرة لهدْم الحدود، وكسر القيود، وتجاوز الخطوط الحمْراء. فيكون واجبُ المربّي أمام هذا التحدّي المعلَن، أن يلجأ إلى وسائل الإقناع لا التّهديد والتعنيف: بعضُ فوائد النوم التي بها ينْمو الجسم والعقْل، وحديث عن التّوازن في التغذية التي تستدعي التنويع، والتذكير بأنّ كلّ الأطفال مِن سنّه يفعلون ذلك؛ لأنّهم يريدون نموًّا جيدًا. معلومات صغيرةٌ قليلة يستوعبُها عقله الصغير، لكنّها بعيدة كلّ البعدِ عن التناقض أو التّمييع.

الطّفلُ والأسئلةُ المحْرجة

الأسئلةُ المُحرجة من أكثر ما يطبعُ بعضَ المراحل العمرية، سلسلة من الاسْتكشافات ومِن البحث عن روابطَ ومنظّمات لهذه الحياة الغريبة عليه. قدْ لا يكون سنّه يخوّل له الاستيعابَ، لكن هذا لا يعني أنْ نُمْطره ردودًا فضفاضةً أو خاطئة أو كاذبة؛ فقط لأجل إسكاتِه. كلّ ما على المربّي فعلُه؛ محاولة تبسيط الأجوبة بشكلٍ لا يتناقض مع الحقيقة العلمية للظواهر.

كيف ولِدْت؟ كيف ومِن أين أتيت إلى هذا العالم؟

يمكنُ بكلّ سهولة الردُّ على هذا مِن غير تعبيرعن الاندهاش، ولا اعتبار لذلك أنّه من المَسْكوت عنه، ولا تمييع، ولا دخول في التفاصيل، فلسنا مُطالبين بأن نرسمَ له خطاطات توضّح الإخصاب، ولا علينا أن نستعمل المُفردات العلمية؛ وإنّما أن نستعمل ما يستطيعُ استيعابه: استعمال «بذرة» أو «حبّة» مثلًا عوضَ البويْضَة قد تفي بالمراد، وهي ليست كذبًا ولا تُناقضُ الحقيقة العلميّة، وإنّما محاولة تكييف للحقيقة العلمية مع درجة استيعابه بكلماتٍ تفي بالمراد. فنكون بذلك أشبعْنا نهَمَه، ولم نقمعه فنقمع بذلك تطلّعاته ومحاولاته

الاستكشافية، ولم نتناقض ولم نكذب.

هذه قاعدةٌ مع كلّ أسئلته المُحْرجة، بعد التأكّد من قصده وفهمِه للأشياء، وفهْم سؤاله واتجاهه.

«لا أعلم»: ردٌّ منْطقيّ للأسئلة التي لا نعرفُ جوابها

هل يُفترض أن يكون المربّي عالمًا ملمًّا بكلّ ما يدور حوله؟ وهل يضمنُ ألّا يفاجئه الطفلُ بأسئلة لا يجدُ لها جوابًا؟ هل عليه أنْ يملأ الفراغات ويهْرفَ بما لا يعرف، فقط لأجل صورته أمام الطفل؟

ماذا لو اكتشف الطفلُ كذبَه أو خطأه أو تناقضه؟ هو لا ينسى الأجوبة، خاصّة تلك الصّادرة من المربّي، أبًا كان أو أمًّا أو مدرسًا، ولن يمرّر الأمرَ إن اكتشف أنّه قد ضُلِّل، وهنا يأتي دور المربّي مرّةً أخرى في حلّ هذا الإشكال، وتجاوز «الأزمة»، واسترداد ثقةِ طفله به.

الأهمّ من الحفاظ على صورة «الكبير» الذي يفترض أنْ يعرف كلّ شيء؛ القدرةُ على جعل الطّفل يفْهَم ويستوْعِب ويقتنع بأنّ الأسئلة الصعبة، جوابُها في البحثِ وليس في الاتّكال دائمًا على ردود الكبار، وبأنّ الكبار أيضًا مازالوا يتعلّمون فلا حدّ للعلْم،

وبأنّهم يبحثون أيضًا حتى يشفوا غيَّهم. ولعلّ أفضل ردٍّ على سؤالٍ لا نعرف جوابه؛ أنْ نخبر الطفلَ بأننا لا نعلم، وأن ندْعوه للبحث سويّا. فإنْ صادف أنْ أخطأ المربي في ردٍّ ما دون بحث، فقط اتّقاءً لمزيد أسئلة، أو حفاظًا على صورته، أو لانْشغاله؛ فلا أقلّ إنِ استكشف الطفلُ خطأ الردّ، وواجَه به المربّي؛ لا أقلّ أن يخبره بأنه ردّ مِن غير تفكير، وبأنّه كان واهمًا، وأنْ يشكرَه على تصحيح المعلومة. فيكون بذلك بصددِ تعْليمه الاعترافَ بالخطأ، والامتنان للغير، ويشجّعه على البحْث، ويستردّ ثقته به.

الطّفلُ والسّؤالُ عن المشاكل الحياتيّة التي تخصّ الوالدين

ليسَ على الوالدين إدخالُ الطّفل في مشاكلهما، لا بمجرّد الحكي، ولا بالتّحريض أو جعله يتحيّز لطرفٍ ضدّ الطّرف الآخر. وإنّما دورهما أنْ يحدّثاه باقتضاب عمّا يفترض أن يحدثاه عنه.

في حالة الطّلاق مثلًا:

فتحُ قنواتٍ للتّواصل مع الطفل وإفهامه ما يحصل بين الشريكين؛ سيجعله يستوعبُ -على الأقلّ- ما يحصل: «تمّ الفراق لأنّ التّفاهم لم يعدْ حاصلًا بيننا، وليس لك يدٌ في ذلك»،

مِن غير دخولٍ في التفاصيل ولا محاولة اسْتقطاب أو تلميعِ صورةِ طرفٍ على حساب الطّرف الآخر. لا شيء أكثرَ نفعًا في هذه الحالات من الحوار الدّائم والردّ على أسئلته ما لم يتجاوز ويتدخّل في الخصوصيّات ويطالبُ بالتفاصيل. يحتاج إلى التّأمين، وإلى إنقاذه من الذّعر بسبب المجهول الذي ينتظره بعد الفراق، ويحتاج إلى المواكبَةِ خلالَ هذه الفترة كي لا يشعرَ بالذنب، وبأنّه سببُ المُشكل، لكن من غير دخولٍ في التفاصيل.

شلّالاتُ الأسئلة لا تفرضُ الردّ على الدّوام

بذلُ الجهدِ لأجل الـردّ على أسئلة الطفل، والمحاولات المتواصلة لأجل إشْباع نهَمِه وعدم قمْعِه؛ لا تعني بأيّ حالٍ أن نكون على الدّوام رهنَ إشارته، وبأنّنا ملزَمون بقبول تدخّله في كلّ شيء، حتى في الخصوصيات خوفًا من قمعِه.

نردّ على الأسئلة التي تخصّه، وفقط التي تخصّه، فإنِ استشعرنا تطاولَه على الخصوصيّات، وعلى ما لا يفيدُه العلمُ به؛ أحْجمنا عن الردّ، وشرحنا له بأنّ الأمر لا يخصّه.

يبقى الطفلُ طفلًا، والكبار كبارًا؛ من غير خلطٍ للأدوار.

الطّفلُ والسّؤالُ عن الموت

الحديثُ مع طفلٍ عن الموت مِن بيْن أصعب ما يتَحدّث عنه، خاصّة إن كان نتيجةَ واقعٍ فقدَ فيه الطفلُ عزيزًا. إنْ كان الأمر يصعب علينا نحن الكبار، ويشقّ علينا تفسيرُه واستيعابه؛ فكيف بطفلٍ بالكادِ يتفتّح على الحياة في دهشةٍ وذُعر؟!

هل يُفترَض أن نخفي عنه الحقائق، وأن نزيّفها بتشبيه الموت مثلًا بالسّفر أو النّوم، فنقول للطفل: «جدّك قد سافر، وسيعود يومًا ما» أو «هو نائم نومًا طويلًا، وسيستيقظ لمّا تكبر» كما يفعلُ البعض ظنًّا منهم بذلك بأنّهم يحمون الطفلَ مِن أوجاع الحياة، ومِن تلبّس سنواته الصّغيرة بالألم؟

هل الحلّ في التّمويه، أم في المواجهة؟

أليسَ هذا الطفل الذي شبّه له الموتُ بالنوم؛ معرّضًا لنوبات هلع وخوف كلّما جنّ الليل، واقتربت ساعةُ نومِه خوفًا من ألّا يستيقظ مثلما حصل لجدّه؟ أليس معرّضًا لانتظارِ ما لا يأتي في حالةِ شوقٍ لا متناهٍ يشتعل بالذّكرى وتزَكّيه رؤيةُ الصور والمناسبات؟

وماذا عن أسئلتِه الوجودية التي لا تنتهي؟

صحيحٌ أنّنا لا نستطيع دائمًا أن نردّ على كلّ تساؤلاتهم لأنّنا في الغالب نفاجأ بها، ونكون غيرَ مستعدّين قبلًا لمواجهتها، فنرجئ الردّ بتصبيرٍ ذكيّ إلى أن نمتلك ما يقنعهم ويهدّئ ثورةَ استفساراتهم، لكنْ لا مجال للتمويه أو التّزييف والرّدود الكاذبة.

هو يحتاجُ ردًّا منطقيًّا وواضحًا يستوعبه ذهنُه الصغير، وهذا يضطرنا إلى أنْ نكون واضحين أولًا مع أنفسنا ومن ثمّ معَه. فهل الوضوح يعني أنّه علينا أن نقومَ بمحاضرةٍ لهم عن جدليّة الحياة والموت؟

ليس بالتّمويه والتّزييف، ولا بالمحاضرات نستطيع فعلَ ذلك، وإنما بحواراتٍ تماشي عقولهم وتعلّمهم التفكير والتأمّل. وهكذا، بعبارات واضحةٍ بسيطة، نتمكّن من مجابهة الأمر:

«الموتُ كما الحياة، شيء طبيعي»..

خلقَنا اللهُ وجعل لنا موعدًا للموت لا نعلمُه بالضبط، لكن كلّ الخلائق هكذا تحيا وتموت بأمرٍ من ربها. ثمّ نترك له حريةَ السؤال بعدها مؤكّدين على أنّ الموت لا يختار الكبيرَ دون الصغير، وليس له ارتباطٌ بالخيرية أو الشرّ في الميت.

ماذا بعْدَ الشّرح؟

بالموازاةِ مع الشرح والتّوضيح وإشباعِ نهَمِه المعرفي؛ يحتاج إلى الدّعم والمواساة والقرْبِ الوجداني. أن نتشارك الحزن أفضل مِن أن نتفرّق كلٌّ في عالمه يواجه وحدَه وجعَه. الاحتواء والتعبيرعن الحبّ والمساندة ودفعه في رفقٍ إلى أن يعبّر عمّا يخالجه دون تسفيهٍ لمشاعره، أو أنْ نفرض عليه أنْ يتجاوزها بكتمانِها؛ أهمّ مرحلةٍ بعد الشرح.

توجيهاتٌ عامّة في الردّ على أسئلة الأطْفال

– اعتبارُ السّؤال وسيلةُ تواصلٍ ومحبّة أكثر ممّا هو وسيلة للمعرفة وإشباع النّهَم.

– أخذُ كاملِ الوقت للتفكير قبل الردّ.

– الرّدود لا بدّ أن تكون بسيطة يستوعبُها عقلُه الصغير، ومع هذا فيجب أن تكونَ منطقيّة.

– كثرةُ التّفاصيل والشروحات تبعثرُ الطّفل.

– اجتنابُ الكذبِ في الردّ بسبب عدم معرفة الجواب.

– إرجاء الردّ لأجْل البحث، وقول «لا أعْلم» لا ينقص من قيمةِ المربّي، ولا يغيّر صورته في عين الطفل.

– إرجاءُ الردّ يعني مُهلةً للبحث وللتفكير، ولا يعني بحالٍ التملّصَ الآني من الردّ. الوفاءُ بالعهود لا يستثنَى منها وعودُ الأطفال، بل مناسبة لتعليمهم أن يحفظوا عهودهم.

– إشراكُ الطّفل في البحث وسيلةٌ لتشجيعه على الاستقلالية والثقة بالنفس.

خاتمة

ومضاتٌ والْتماعات، هذا جُهدُ المقلّ، وهي في كلّ الأحوال جنينُ فكرةٍ مَفادها التّأكيد على حساسيةِ هذا الموضوع، والدّعوة إلى ضرورة التوقّد واليقظة الدّائمة مع ما يُلقيه الواقعُ مِن عثراتٍ وامتحانات أمامك أيّها المربّي، وإلى مواكبةِ المستجدّات، والبحث عن الحلول بكلّ وعيٍ وحضور، وفهْم دور الوالديّة والمسئولية المُلقاة على عاتقك، والحثّ على ممارسةِ تلك الأسئلة الكفيلة بمدّك بآلياتِ النّقد الذّاتي، فتردّ بكلّ شفافية ووضوحٍ عن موْقعك من التربية، وعن القيمة المُضافة التي تمنحها لأبنائك بتواصلك معهم.

ما الذي تمنحُهم إيّاه حين اجتماعك بهم؟

أهوَ حديثُ أصدقاء يتناقشون بكلّ أريحية في شتّى مجالات الحياة، أم هو حديثُ منابر وعظيّة مجرّدة من كلّ نقاشٍ وتبادل حديث وردّ على الأسئلة التي تحيّر عقولهم الصغيرة؟

هل تجعلُ من وقائع الحياةِ اليومية، ومن المواقف المفاجئة، مناسبتك

لتعليمهم عقيدتهم وشرائع دينهم وتحدّثهم عن روح العبادات، لا عن طقوسِها، وعن المبادئ والأخلاق والقيم الوطنية والاجتماعية والدينية، وتواكب معهم عبرَها المستجدّات؟ أم أنّك- في أفضل أحوالك- تزجّ بهم عند ملقّن أو ملقّنة، يجعل لهم من العقيدة والفقه دروسًا تُحفَظ وتستظهر، ومِن القرآن وسيلةً فقط للتفاخرِ بحفظه وللتفوّق على الأقران في المحافل الدّينية؟ أو تعطي كلّ العنايةَ لدراستِهم الأكاديمية دون تشجيع مواهبهم، وإشغالهم بما يروّح عنْهم ويصقل شخصيّتهم؟ أو أنّ كلّ عنايتك منصبّة على تعليمهم اللّغات والموادّ العلمية على حساب تغذية أرواحهم وتعليمهم الدّين والأخلاق ومهارات التّواصل؟

كيف حالُك مع عوْدتهم من المدارس محمّلين بأخبار متجدّدة بتجدّد الوقائع في عوالمهم الخارجية؟ هل تجعلها مناسبة لموعظةٍ مباشرة جديدة محمّلة بالوعيد والتّوبيخ، أم لجعْلهم يفضفضون ويستمتعون بالحكي معك، وتجعلها مناسبة لكسب ثقتِهم، ولنسج علاقةٍ مبنيّة على الحبّ والاحترام والتّقدير والتفهّم والقرب؟

كيف هي نظرتُك للمجتمع؟ وللمتغيّرات والمستجدّات ومجالات التأثير؟ وللتطوّرات التي أصبح العالم محكومًا بها؟

ما آلياتُك في تشخيص الواقع، ومقاربة أزماتِه في عصر العولمة، ومواقع التّواصل والغزو الإلكتروني والمعلوماتي؟

وما وسائلك في اقتراح الحلول، وفي خلْق علاقاتٍ مع مختلف

مكوّنات الواقع من منْظورك ومرجعيّتك؟

ما أدواتُكَ لجعل التّناقضات مساحةً للتّفكيك والتفكير، ومن ثمّ التّغيير؟ وبالتالي، ما الآليات التي تمدّ بها ابنَك كي يواجِه- بحنكةٍ- العالمَ الخارجي المُتناقض؟

هي ذي التّحديات الحقيقية التي تواجهك، وليس مِن كسب الرهان في شيء؛ أنْ تختار لهم المدارسَ والمحاضن التربويّة مع الاطمئنان إلى قدْرتك على تكْريس سلطويّتك، وجعل مَن حولك يأتمرون بأوامرك من غير فهْم ولا إقناع ولا قدرةٍ على الرّفض والمناقشة. فهذا الطفلُ أو المُراهق الذي حرّكتَه في رقعتِك بالخطوط الحمراء، وبالثنائيّة الصارمة «وعدٌ ووعيد»، بنفس المنْطق الذي شبّعته به سيحرّكه العالم الخارجي، فهو قدِ اعْتاد على البرْمَجة، وعلى التحرّك بخيوطٍ أو بآلةِ تحكّم، وسيكون مِن السّهل على مَن حوْله أن ينجحوا معَه في نفس المهمّة بنفس الوسيلة، وبالتّالي فـ«الفرمتة» والانْزلاق والانحراف لن تكون مستبْعَدة في حالته إلّا أنْ يحفظه الله. لكن إنْ أنتَ كنتَ قريبًا منه ومِن تساؤلاته وتغييراته، وأشبعتَ نهَمَه المعرفيّ بنفسك أو مكّنْته من الوسائل النّاجعة الكفيلة بذلك، وربطتَ له العبادات بفهْم روحها، ومكّنْته- بشكلٍ مبسّط- من آليات التأويل وفهْم الخطاب الدّيني والعلمي، وعلّمته كيف ينسجُ علاقته مع ربّه بناءً على الخشية والرّقابة، وكيف يتواصل بمهارةٍ مع العالم الخارجي المُتناقض، وحرصتَ على أن تكونَ مثَلَه الأعْلى؛ عوضَ

أن تغرقه في الحيرة بين استيعابِ ما تقوله وما تفعله؛ فقدْ كسبته ابنًا وصديقًا وعنصرًا بنّاءً في المجتمع، وقبلَ هذا وذاك، كثّرت به سوادَ الأمّة، وجعلته- بفضل الله- ممّن يُفاخر بِهِم الرّسول- صلّى الله عليه وسلم- باقي الأمم يومَ القيامة.

وإنْ ربّيْته بالحبّ على الحبّ، وبالاحترامِ على الاحترام، وبالقدوة والمشاركة والتّحفيزعلى الإنْجاز والإبداع، ستساعدُه على النموّ السليم، وعلى التّوازن في شخصيّته، وستحمي- بإذن الله- المجتمعَ مِن مزيد عاهاتٍ، وتعفي نفسّك من الأزمات.

فهرس المحتويات

إهداء 5
إلى كلّ مُرَبٍّ غيور 5
بيْن يدي الكتاب 7
توطئة 9
ماهيةُ التّربية 15
إشباع حاجيّات الطفل تضمن نموّه السّوي 17
كيف نربّي طفلًا متوازنًا؟ 21
مَن هو المربّي الواعي؟ 28
الطّفل والتّربيةُ الوجدانية 31
أسسُ التّربيةِ الوجدانية 35
الطفلُ والكذب 43

الطّفلُ والخوف 49
الطّفلُ العصبي 53
الطّفلُ العنيد 56
الطّفلُ الخَجول 60
الطّفلُ والغِيرة 63
كيف نربّي الطفلَ على الثّقة بالنّفس؟ 65
كيف نربّي الطفل على تحمّل المسئولية؟ 71
كيف نربّي طفلًا واثقًا يقدّر ذاته، ويحترم مَن حوْله؟ 78
الإبْداع وسيلتُه لتحقيق ذاتِه 81
عشْرُ خُطوات كي تقتلَ ثقتَه بنفسِه وتقديرَه لذاتِه 83
صحّح مفاهيمَك 85
أذنُ المُحبّ حلٌّ لأعْصى المشكلات 89
لأجْلِ إنْصاتٍ ناجِع 91
كيف نُمارس سلطتَنا على الأطفال، آباءً ومربّين، بشكلٍ ناجِع
وغير متعسّف؟ 96

كيف نربّيهم على الصّراحة، وعلى أنْ نكون مأمَنَ أسرارهم؟ 103

بصوتٍ واحد.. بقلبٍ واحد.. 105

التّمويه، أو التّوضيح، أو التّكييف، أو التّجاهل والقمعُ في الردّ

على أسئلتهم؟ 107

توجيهاتٌ عامّة في الردّ على أسئلة الأطْفال 118

خاتمة 119

فهرس المحتويات 123